١

روايات احلام

أهواك !

www.elromancia.com

مرمورية

أهواك !

هل يمكن أن يقود الأسر إلى الحب والسعادة؟ سؤال خيالي... وحلم بعيد مستغرب...

لم يكن هذا ما يشغل بال سندي وهي تتحرق غيظاً للخروج من قصر انريكو كوستيلا المحصن... ما الذي قادها إلى عالم هذا الرجل القاسي والساحر؟

لن تتمكن من إخبار صديقها بما عرفته عن كوستيلا ليحصل على الترقية...

لكن سندي في مهب رياح الحب تقاوم وتصارع، فعقلها لا يتحمل هذا، وقلبها يتمرد عليها، وتصرخ بانريكو كوستيلا: «ابتعد عن أحلامي... ألا استطيع الهرب منك؟».

آه... ثراؤه فوق خيالها... وعالمه أبعد من عالمها... من المستحيل أن يحبا بعضهما... فهل تضحي بحياتها من أجله؟

لبنان: ٢٥٠٠ ل.ل.	الإمارات: ١٠ دراهم	مصر: ٦ جنيه
سوريا: ٧٥ ل.س.	قطر: ١٠ ريال	المغرب: ١٥ درهم
الأردن: ١,٥ دينار	البحرين: ١ دينار	تونس: ٢ دينار
الكويت: ٧٥٠ فلس	السعودية: ١٠ ريال	عُمان: ١ ريال

١ ـ عند الأسوار

ـ لقد أنهيت عملي!

وقفز والتر لوقع صوت سندي في اذنه وهو ينظر حوله مستغرباً. كان شعره البني مشعثاً وربطة عنقه مفكوكة حين قال:

ـ ليتك لا تتسللين هكذا! فأعصابي متوترة، العمل في هذا المكان مع أدامس يقطع أنفاسي.

نظرت سندي إلى آخر الغرفة الطويلة حيث كان رئيس التحرير الليلي يقف مراقباً اثنين من المحررين وقالت:

ـ وهل يقسو عليك؟

ـ ألا يفعل هذا دائماً! لقد كلّف اثنين منا لتعقب انريكو كوستيلا. ولقد اتصلت بمعارفي وسألتهم عما إذا كانوا يعرفون مكانه لكن أحداً لم يتكلم. يقال إنه لم يغادر أميركا بعد، ولكن أحدهم أخبر أدامس أن كوستيلا قد وصل إلى هنا، وهو يحضر لعملٍ ما. لقد أصابني التشنج في ذراعي وأنا أمسك بالهاتف متصلاً وها أنا أظن أن أدامس يضيع وقته.

ـ هل مصادره موثوقة؟ هل ذكر شيئاً عن الموضوع؟

وهز والتر كتفيه:

ـ يدّعي أن من أخبره هو مصدر موثوق مائة بالمائة وأظنه شخص مقرّب من كوستيلا، إلا أن أدامس لن يبوح باسمه.

تجهم وجه سندي:

ـ ما يسرني أنني سأبتعد عدة أيام عن هذا المكان الذي غدا يشبه مستشفى مجانين فالجميع فيه ثائرون، ولعل دنو حلول عيد الميلاد هو الذي يثيرهم. . . الأفضل الآن أن أذهب، سأراك يوم الاثنين. أرجو لك حظاً سعيداً مع قصة كوستيلا الذي أتمنى أن تجده.

وخفّض صوته حتى لا يسمعه أحد:

ـ أرغب في الوصول إليه قبل ادي، الذي ينافسني على وظيفة مساعد رئيس التحرير، أتذكرين هذا. وأدامس سيراقبنا عن كثب خلال الشهر القادم. آه ليتني أسبق ادي إلى هذه القصة.

ـ وماذا يظن أدامس أن كوستيلا يسعى إليه هنا؟

هز والتر كتفيه:

ـ ربما لا يعرف. . . ولكن لا بد أن يكون يستحق أن يطير انريكو كوستيلا لأجله عبر الأطلسي. آه لو أملك بعض ما عنده من ملايين فلن يفتقد مليوناً أو اثنين.

وسحب من الملف الملقى على طاولته صورة بالأبيض والأسود. ونظر إليها قائلاً:

ـ رجل محظوظ! لديه كل شيء، المال، والجمال، والنساء، هل يبدو لك هذا عدلاً؟

نظرت سندي بفضول إلى الوجه الأسمر ذي الملامح القاسية التي تبدو واضحة في الصورة التي التقطت له، وهو مع امرأة جميلة ترتدي فراء ثعلب فضياً، يلف خصرها بذراعه. وضحكت قائلة:

ـ إنه أوسم من أن يكون مليونيراً. . . والآن عليّ أن أذهب، أريد الوصول إلى منزل هيلدا قبل منتصف الليل.

ـ قودي سيارتك بحذر. . . بلغي شقيقتك وأطفالها حبي ولا تنسي

الاتصال صباح الاثنين.

أسرعت سندي مبتعدة، ملوحة له بيدها. كان الجميع في الجريدة يعمل بجهد لإيصالها إلى الطبع عند العاشرة تماماً. سندي تعمل خلال النهار مصورة صحفية، وهي عادة تأوي إلى منزلها في مثل هذا الوقت بعد يوم شاق مضن يبدأ عند التاسعة صباحاً. أما والتر فيعمل خلال فترة الليل التي تمتد إلى الصباح، وهذا ما كان يفسد عليهما اللقاء خارج العمل.

بعد أن اجتازت سندي زحام السير في لندن، وجدت الطريق أمامها خالياً. . . ومع ذلك فقد قادت سيارتها بحذر وبسرعة معتدلة لأن الجليد يغطي الطريق وتريد أن تصل سالمة. سندي تحب عائلتها كثيراً وتزور والديها كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا لكن بُعد المسافة بين منزلها ومنزل والديها الواقع في منطقة نائية في نور ثومبرلاند يعيقها من رؤيتهما متى أرادت. شقيقتها هيلدا التي تكبرها بخمس سنوات متزوجة منذ ثماني سنوات من الطبيب المشهور راندل لاوسون، الذي تغطي خدماته الطبية منطقة ريفية واسعة في «نورفلوك» ولديهما ثلاثة أطفال، تحبهم سندي بشغف.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة ليلاً عندما وصلت سندي إلى سوق البلدة الصغيرة حيث تسكن شقيقتها. الشوارع كانت مقفرة، والجو بارداً، والليلة ساكنة إذ لا نسمة تهز أغصان الأشجار العارية على جانبي الطريق وما أن أوقفت سيارتها حتى فُتح باب المنزل وشاهدت شقيقتها تقف أمام النور الأصفر المنبعث من الداخل، لوّحت لها سندي، ثم أنزلت حقيبتها من السيارة. . . إنها ثقيلة. . . فقد ملأتها بهدايا الميلاد ومعظمها للأولاد. . .

قالت لها هيلدا وهي تصعد درج المنزل:

- تأخرت، فراودني القلق عليك.

حين تناولت الحقيبة من سندي شهقت لثقلها:

- ماذا تضعين فيها؟!

- هدايا... ميلاد سعيد.

كان الناس يتعجبون عندما يقال لهم إنها وهيلدا شقيقتان، إذ لم يكن بينهما شبه ظاهر. لهيلدا شعر بني أجعد وعينان بنيتان ووجه مستدير مرح القسمات وهي قصيرة القامة ممتلئة الجسم قليلاً، أما سندي فقد كانت أطول منها ذات جسد نحيل رشيق متناسق، وشعر أحمر كثيف تركته ينساب متموجاً فوق كتفيها وعينين خضراوين مؤثرتين جداً. وهي تعلم أنها ليست جميلة جداً، ولكنها تعرف أيضاً أن الرجال يحدقون إليها عندما تمر أمامهم. وقد كان لها روح شقيقتها المرحة وحب كبير للأطفال، وللحيوانات والريف. سألتها هيلدا وهي تضع الحقيبة أسفل السلم.

- هل كانت رحلتك هادئة؟

خلعت سندي قفازيها وسترتها ثم غرقت في غرفة الجلوس في أريكة قريبة من المدفأة، ومدّت يديها التماساً للدفء، فأجابت قائلة:

- كانت رحلة موفقة خالية من ازدحام السير.

- هل تعشيت؟

نظرت إليها سندي مبتسمة:

- أكاد أموت جوعاً. من الرائع أن أكون هنا. أتحرّق شوقاً إلى ليلة الميلاد مع الأولاد.

ردت هيلدا بابتسامة مماثلة:

- سأحضر لك بعض السندويشات مع القهوة.

كانت تنتصب قرب النافذة شجرة ميلاد تشع بالألوان والأضواء

الخيالية التي تضيء تارة وتنطفئ طوراً، فيما تعبق رائحة الصنوبر في جو الغرفة المزينة، وقد أثقلت أغصانها بكرات الزجاج الملونة.

ابتسمت سندي لنفسها، ثم تثاءبت وهي تسند رأسها إلى ظهر المقعد.

عادت هيلدا إلى الغرفة تحمل صينية الطعام فانتبهت سندي من غفوتها في هذه الأثناء.

- هل كنت نائمة؟

هزت سندي رأسها متثائبة:

- غفوت قليلاً. أنا جائعة، تبدو السندويشات لذيذة.

قضمت سندويشاً بينما كانت هيلدا تصب القهوة وتقول:

- إنه لمن المؤسف أن لا يستطيع والتر أن يأتي معك... لعل في السنة القادمة، وربما عندما...

توقفت عن الكلام بعد أن نظرت إليها سندي بحدة:

- لا تقطعي عني الجسور... يا هيلدا!

- بدأت أشك في أنك لن تتزوجي أبداً!

- ومن أتى على ذكر الزواج؟ أنا على وفاق مع والتر ليس إلا، وهذا لا يحتمّ الزواج في هذه الأيام وفي هذا العمر.

- لقد أحضرته إلى هنا، وهذا ما لم يحدث قبل الآن. لقد حان الوقت! أنت في الرابعة والعشرين.

- بالله عليك الرابعة والعشرين ليست سن الشيخوخة، أنا لستُ على عجلة من أمري. أين هو راندل؟

- خرج بعد أن تلقى مخابرة من مريض منذ ساعة. لقد حصل حادث قرب «امبرلي هول».

أرادت سندي أن تبقي الموضوع بعيداً عن والتر فسألتها متعمدة:

- وأين هذا؟

ـ إنها مزرعة كبيرة على طريق «نورويش» لا ريب أنك مررت بها اثناء قدومك فالمنزل يبدو واضحاً عندما تصلين إلى أعلى التل وله موقف كبير للسيارات. إنه من الأملاك الضخمة، والمنزل من طراز القرن الثامن عشر... ولقد اثيرت إشاعات كثيرة عندما اشتراه السيد كوستيلا...

استوت سندي جالسة وقد صحت تماماً:

ـ هل قلت كوستيلا؟

بدت الدهشة على هيلدا:

ـ نعم هو المالك الجديد لكنني لم التقِ به بل لم يلتق به أحد إذ لا يُرى هناك أبداً، ولست أدري لماذا اشتراه. بعضهم يقول انه يسعى للحصول على رخصة للبناء فوق الأرض، والبعض يقول انه سيقيم مجمعات سكنية والبعض الآخر يقول مجمعاً صناعياً... ولكن...

ـ ما اسمه الأول؟

ـ لست أذكر، لماذا؟

ـ هل هو انريكو؟

ـ انريكو؟ يبدو لي الاسم مألوفاً... لماذا... هل تعرفينه؟ يُقال إنه مليونير أميركي. هل هو مشهور؟ أليس ممثلاً أو شيء من هذا القبيل؟

مالت هيلدا إلى الأمام وقد تملكها الفضول، فضحكت سندي:

ـ لا... إنه رجل مالي كبير.

ـ اوه... إنا لا أعرف ما يعني هذا...

ـ إنه العقل المدبّر لمؤسسة كوستيلا ومايلز العالمية التي تُعنى بالشؤون المصرفية وهي مؤسسة ضخمة جداً تقرض المال للحكومات والمصارف.

ضحكت سندي وعيناها تلمعان:

ـ هذا كل ما أعرفه، ولا أعرفه إلا لأن والتر قد أخبرني عنه. إذا كان

كوستيلا الموجود هنا هو انريكو كوستيلا الذي يبحث عنه والتر، فمن الأفضل أن أتصل به.

ـ اسمه غير عادي... لا بد من أن يعرفه راندل لأن العاملين في المزرعة هم من مرضاه... لكنك كما تعرفين راندل كتوم بشأن مرضاه حتى أنه يكاد لا يخبرني شيئاً عنهم.

ـ متى ذهب راندل إلى ذاك المكان؟ وما نوع الحادث؟

ـ لا علم لي بذلك... هل تريدين المزيد من القهوة؟

ـ لا شكراً... لقد تحدثت مع والدتي هاتفياً هذا الصباح، هي بخير. تأمل المجيء ووالدي صباح الميلاد أما أمسية الميلاد فتريد قضاءها مع والدك فقط في المنزل. هل سيبقيان معك طويلاً؟

ـ أسبوعاً. سيصلان عند موعد الشاي ثاني أيام الميلاد، وهذا يعني أننا ستمضي بضع ساعات قبل عودتك إلى لندن.

ـ هذا جيد... لقد اشتريت هدايا وأحضرتها معي. هدية أبي منظار مكبر لمراقبة الطيور، وهدية أمي «كشتبان» فضي من العصر الفيكتوري تضيفه إلى مجموعتها.

ـ ستحبه كثيراً.

راحت هيلدا تخبرها عمّا اشترته من هدايا.

ارتشفت سندي القهوة وعيناها توشكان أن تطبقا. لكنها جاهدت نعاسها حتى ترى راندل. بعد نصف ساعة رفعت هيلدا رأسها لتقول:

ـ لقد وصل.

ـ هل أنت واثقة؟

ـ أعرف صوت سيارته.

نهضت هيلدا لتخرج، وبعد لحظات سمعت سندي صوت راندل في الردهة. ثم دخل الغرفة، متورد الوجه من الصحة وهواء الليل البارد،

انحنى ليقبل سندي على وجهها:

ـ مرحباً سندي.

راندل في العقد الرابع من عمره، صريح حساس ذو أخلاق مستقيمة، وعقل راجح. قسماته جذابة دون أن تكون وسيمة. عيناه الزرقاوان حازمتان، وهو وهيلدا زوجان متفاهمان فهما نادراً ما يختلفان في الرأي وإن كانا أحياناً يداعبان بعضهما للإغاظة، إلا أن ذلك يتم بعاطفة ومحبة وإعجاب مشترك. وقال لها:

ـ من الرائع أن تقضي معنا عيد الميلاد.

ـ من الرائع أن أكون معكم.

ـ لماذا لم تحضري صديقك الشاب؟ أختك تخطط لزواجك منه. أتمنى أن تعرفي ذلك.

ـ وأنا أتمنى لو أنها لا تفعل!

ـ أنت تعرفين شقيقتك!

ـ أعرفها جيداً!

استرخى راندل في المقعد المواجه:

ـ سأتناول كوباً من الشوكولا الساخن ثم أخلد للنوم... فلدي عملية جراحية عند التاسعة صباحاً.

سألته سندي بفضول:

ـ راندل... الرجل الذي اشترى «امبرلي هول»...؟

ضحك راندل قائلاً:

ـ أعلم... لقد أخبرتني هيلدا... لست أدري ما إذا كان الشخص نفسه كما أني لا أعرف اسمه الأول إذ لم ألتقِ به من قبل، لأنه لا يأتي إلى المزرعة، ولأنه ليس أحد مرضاي.

ـ ما هو الحادث الذي دعاك إلى الذهاب؟

تردد قليلاً ثم قال:

ـ لا أرى مانعاً من إخبارك... لقد أحرقت مدبرة المنزل قدمها بالماء المغلي وسبب لها ألماً كبيراً حداني لإرسالها إلى المستشفى. إنه حادث مزعج!

ـ هل رأيت أحداً آخر؟

ـ زوجها فقط، وهو بالتأكيد ليس المالي العالمي، إنه المسؤول عن حفلات العيد، فالمالك يقيم حفلات كل أسبوع في الخريف، وكائناً من يكون، فهو لا يستخدم المكان بنفسه.

وفيما هو يتناول كوب الشوكولا الساخنة من يد هيلدا أردف باسماً:

ـ هذا كل ما سأخبرك عنه، لأن علي الحفاظ على السرية وأنت تعرفين ذلك.

راقبته سندي عابسة وهو يرتشف كوبه فسألته:

ـ هل دخلت إلى المنزل؟ هل هو كبير؟

ـ لست أدري، فأنا أدخل إلى القسم الخلفي، حيث جناح الخدم والدخول إلى المنزل كالدخول إلى المصرف البريطاني إذ الحرس، الذين أقسم على أنهم مسلحون، عند الأبواب. تصوّري أن الحارس طلب مني رخصة السوق قبل أن يأذن لي بالدخول... والبوابة تفتح كهربائياً من مكان ما في المنزل والمكان محاط بسياج مكهرب ومن داخل السيارة شاهدت كلاب الحراسة تجوب الحدائق.

فقالت سندي ببطء:

ـ إنها احتياطات أمنية كبيرة رغم عدم وجود أحد في المنزل.

ـ لا شك في أنه مليء بالأثريات الثمينة.

ـ أعتقد هذا، على كل سأتصل بوالتر غداً، فقد يستطيع أن يدرس الأمر من لندن.

www.elromancia.com

- سندي يا عزيزتي... حتى وإن كان هو كوستيلا الذي تسألين عنه، وحتى لو كان هناك، لن يتحدث إلى الصحافة لأن أحداً لن يستطيع الدخول لمقابلته. أستطيع القول أنّ ذلك المكان حصين.

ثم وقف، وهو يمسح شعره:

- سأذهب إلى الفراش تصبحان على خير.

نهضت سندي بمضض عن مقعدها المريح:

- أظن أنني سآوي إلى الفراش أيضاً. أتريدين أن أساعدك؟ سآخذ الصينية إلى المطبخ.

فردت هيلدا:

- لا... سأفعل هذا بنفسي، اذهبي إلى النوم... يبدو عليك التعب.

قبلتها سندي، ثم توجهت إلى غرفتها، وما كادت تتمدد في السرير الدافىء حتى غرقت في النوم من شدة التعب. استيقظت صباحاً عند التاسعة، سارعت سندي إلى الاتصال بشقة والتر ولمّا لم يأتها الرد اتصلت بالمكتب فقيل لها إنه ذهب لتغطية حدث وقع ليلاً ولم يعد بعد.

ترددت قليلاً قبل أن تقول للمتكلم معها:

- حسناً لقد فهمت... عندما يتصل بكم قولوا له أن يتصل بي لأمر ضروري.

كان الطقس على برودته رائعاً. الشمس تضفي على الأرض الريفية بريقاً جميلاً وهادئاً. كان المنظر هادئاً وجميلاً لا شيء يُرى سوى الحقول الممتدة في كل الاتجاهات. بضع غابات صغيرة تكسر الرتابة الممتدة للمروج الخضراء، وهنا وهناك يمتد برج كنيسة محلية بناها تجار الصوف في أيام كانت انغليا الشرقية إحدى أغنى بقاع انكلترا!

خرجت سندي تتمشى مع الأطفال، ليلتقطوا أكواز الصنوبر للنار. رالف في السابعة من عمره صبي قوي نشيط له لون بشرة أمه ورجاحة عقل أبيه، أمّا التوأمتان فكانتا في الخامسة من العمر، متشابهتان إلى حد يصعب معه تمييز إحداهما عن الأخرى فهي لا تستطيع معرفة آبي من ماي إلا بعد إمعان النظر إليهما، فلآبي شامة على رقبتها تحت إحدى أذنيها.

بعد الظهر اصطحبت هيلدا أولادها إلى السوق لشراء بعض الأغراض، فوقفت سندي تلوح لهم عند الباب وهم يبتعدون بالسيارة... ومكثت سندي تنتظر في المنزل... فساورتها مخاوف... والتر لم يتصل بعد والشمس تسحب آخر أنوارها... والجو اشتدت برودته والريح هزت النوافذ ولاعبت الأشجار. وما كاد جرس الهاتف يرن حتى قفزت سندي من مكانها فإذا به والتر:

- ما هو الأمر الضروري؟

- والتر، أعتقد أن لديّ شيء يقودك إلى كوستيلا...

- ماذا؟

- كوستيلا.

أخبرته عن «ابرلي هول» وما قالته هيلدا عن مالكها الجديد وأكملت:

- لكنهم لا يعرفون اسمه الأول، فقد يكون رجلاً آخر يدعى كوستيلا. أتستطيع أن تجد الحقيقة؟

- أنت هناك الآن يا حبيبتي، أنا أسعى إلى قصة كبيرة لذا لن أقدر على ملاحقة الأمر... هل لك أن تتأكدي ما إذا كان هو انريكو كوستيلا؟ صوري المنزل إذا استطعت، واسألي أقرب الجيران، اتصلي بالشرطة، عليك التصرف بسرعة. اتصلي بالوكالة التي دبرت صفقة الشراء وسأتصل بك غداً... حسناً.

عضت سندي على شفتها:

ـ لكنني لست مراسلة يا والتر والأمر ليس سهلاً كما تظن، و . . .

ـ افعلي ما تقدرين عليه. سندي يجب أن أذهب الآن، فالوقت يداهمني. لقد حدثت جريمة هنا والشرطة تتوقع اكتشاف الأمر في أية لحظة. شكراً لك لازعاج نفسك، أنا مقدر لك هذا ولكن. . .

ـ لا بأس.

وأقفل الخط واعداً بالاتصال في الغد. وأخذت تتجول في الغرفة متسائلة من أين أبدأ؟ لِمَ لا التقط بعض الصور للمنزل فالشمس لم تغب بعد، قد تكون الصور شاحبة ومظلمة، ولكنها قد تساعد في التعرف إلى المكان. ارتدت سترتها الفرو وحملت معها الكاميرا والعدسة المقربة، عليها الإسراع قبل حلول الظلام. بعد عشرين دقيقة، كانت تدور بسيارتها حول الجدران العالية المحيطة بالمنزل، فما استطاعت أن ترى شيئاً خلف هذه الجدران. مرت أمام البوابة الحديدية الجميلة المقفلة، ومن خلالها شاهدت الطريق الخاص الملتف ما بين الأشجار، كان في نهايته منزل أبيض، لا يبدو ظاهراً جيداً بسبب أغصان الشجر. أنزلت زجاج نافذتها بعد أن أوقفت السيارة. وركزت عدسات مكبرة في آلة التصوير علها تكشف شيئاً ما. . . والتقطت بعض الصور. . . كانت على وشك وضع الكاميرا من يدها، متابعة السير، عندما شاهدت نوراً ينبعث من غرفة في الطابق الأرضي. وظهر رجل عند باب الشرفة. . . وجهه لا يظهر واضحاً، ولكنها كانت متأكدة أنه الرجل الذي أراها والتر صورته.

سارعت لالتقاط عدة صور له. أدار وجهه فجأة، فاستطاعت أن تلتقط صورة كاملة لوجهه. من النادر أن تظهر صورة لانريكو كوستيلا في وسائل الإعلام لأنه كان شديد الحرص على أن يبقي وجهه واسمه بعيدين عن الصحف، ولم يسمح للصحافيين بمقابلته ولم يكن على هؤلاء إلا

مفاجأته بالتصوير قبل أن يمنعهم الحرس. كانت تصور ذاك الرجل وهي غير موقنة من أنه الرجل الذي رأت صورته، لكنها فرصة لا تفوت.

كل ما تأمل به الآن هو إيجاد شجرة قريبة من الجدار تتسلقها لتلتقط صورة أوضح له، نظرت خلفها فوجدت بعض الأشجار خارج الجدار تعد بالخير. فأرجعت سيارتها وأوقفتها قرب أعلى شجرة، ثم نزلت ووضعت الكاميرا حول عنقها وهي تتفحص الشجرة بقلق. لقد مر زمن منذ أن تسلقت فيه شجرة، ومن حسن الحظ أنها كانت ترتدي الجينز تحت سترتها، وتنتعل حذاءً خفيفاً.

ومضت عدة دقائق قبل أن تصل إلى غصن يحاذي ارتفاع الجدار. هل سيحمل ثقلها يا ترى؟ ترددت قليلاً، ثمة طريقة واحدة للتأكد. وبدأت تزحف فوقه فانحنى الغصن تحتها لكنه لم ينكسر، تمسكت به، وقلبها يكاد يتوقف من الخفقان، وأخيراً وصلت إلى الجدار ونظرت عبر موقف السيارات إلى داخل السور.

كان النور قد بدأ ينحسر بسرعة حولها، والأفضل أن تسرع بالتقاط الصور وركزت على المنزل أولاً، وهي ممددة فوق الغصن، مسندة الكاميرا إليه. كان الرجل قد اختفى، ولكن ما إن همت بالرجوع حتى ظهر ثانية، وبدا وكأنه ينظر نحوها، ولكنها أدركت طبعاً أنه لا يستطيع رؤيتها.

وقف هناك بشكل طبيعي ويداه في جيبي بذلته السوداء، أهي بذلة سهرة سوداء؟ التقطت صوراً سريعة له وكان يراقب السماء عابساً. رأته أسود الشعر، طويل القامة في أواخر الثلاثينات تقريباً. ذلك الوجه الجذاب كان دون شك الوجه نفسه الذي أراها إياه والتر. لقد وجدت انريكو كوستيلا! واجتاحتها موجة انتصار. يجب أن تعود إلى منزل

هيلدا، وأن تظهر الصور، وتقول لوالتر.

ظهر رجل آخر، واتسعت عينا سندي من الذهول عندما رأت عبر العدسة الكبيرة الرجل الآخر الذي هو شخص معروف دون شك. إنه رجل دولة افريقي ظهر في الأخبار مؤخراً عندما استولى على السلطة في بلده إثر انقلاب عسكري. ولم يدهشها أن يتحدث هذا الإفريقي إلى انريكو كوستيلا، ولكن ما أدهشها هو أنها لم تكن تعلم بوجود كاوندي في بريطانيا... فهل هو يحاول الحصول على قرض لدولته من مصرف كوستيلا؟ وهل كوستيلا متورط في الانقلاب؟ نسيت في غمرة إثارتها وفضولها أن تلتقط صورة للرجلين معاً. وما إن تذكرت حتى راحت تلتقط الصور لهما. التوتر جعل يديها تهتزان، فانزلقت الكاميرا منها فجأة، وأسرعت لتمسك بها، فاهتز جسدها، وانحنى الغصن من تحتها، فتعلقت به، وفي هذه اللحظات سمعت وقع خطوات مسرعة ورجل يصرخ...

ـ هاي... أنت! ماذا تفعلين فوق؟

ارتعدت فرائصها لما شاهدت حركات متسارعة حولها ورجلاً يركض حاملاً سلاحاً جمّد الدم في عروقها.

بدأت تنزلق عن الغصن وإذا بها ترى وميضاً برتقالي اللون يتبعه أزيز فوق رأسها على بعد أقدام أعلمها أن احدهم أطلق النار عليها.

ـ ابقي حيث أنت!

الأمر الخشن جعلها أكثر تصميماً على الهرب، إذ كيف تبقى حيث وهي والمسدس مصوب نحوها؟! لكنها ما كادت تصل إلى جذع الشجرة بسلام حتى لمع ضوء مصباح كاشف، كادت قوة ضوئه تعميها إلا أنها استطاعت رؤية رجالٍ يركضون وفي أيديهم ألجمة كلاب الزاسية، تنبح

وتكشر عن أنيابها.

تركت نفسها تقع أرضاً، وقد جف اللعاب في فمها وتوتر جسدها من الخوف، إذ لم يكن أمامها خيار آخر، فمنظر الرجال لم يعجبها ولا كلابهم... ولا مسدساتهم خاصة. نهضت عن الأرض متأوهة من الألم، لكنها لما كافحت للوقوف على قدميها، صدرت عنها شهقة ألم أخرى أعلمتها إنها قد لوت كاحل قدمها اليسرى، وصرّت على أسنانها ثم راحت تقفز على قدم واحدة لتصل إلى السيارة القريبة منها وامتدت يدها تفتح الباب.

ـ قفي دون حراك!

ازداد شحوب سندي، ولكنها لم تنظر خلفها، وفتحت الباب دون أن تأبه بالأمر الجاف الذي سمعته، ودوى صوت الرصاص مجدداً ولامست الرصاصة سطح السيارة. فنظرت برعب إلى الخدش الطويل الذي أحدثته الرصاصة في دهان السطح الأبيض. ولم تستطع التصديق بأن هذا يحدث لها.

ـ قلت قفي دون حراك!

استدار رأس سندي إلى الخلف وكأنه رأس جرو شُد ذنبه، وتوقف المسلح على بعد أقدام منها، وسلاحه مصوب نحوها، وفي هذه اللحظات أصبحت سندي كالجليد من قمة رأسها حتى أخمص قدميها.

•••

٢ - في الداخل

- تحركي!

أشار الرجل بسلاحه إلى البوابة المفتوحة، كان مظهره مخيفاً فهو عريض المنكبين كبير الرأس كثيف الحاجبين، في يده بندقية أرعبتها وجعلت من الصعب عليها رفض أمره، فبلعت ريقها ثم رضخت. . .

ومشت وهي تعرج نحو البوابة، تعض شفتها من الألم الذي ينتابها كلما وضعت ثقلها على كاحلها المصاب. لم يلبث أن برز رجلان من الظل، يمسك كل منهما بلجام كلب هائج. وقفت سندي مسمرة، غير قادرة على التقدم إلى قرب الأنياب البارزة والفكين المكشرين، شعرت بالرجفة تسري في عمودها الفقري. . . ونبح الكلبان، وهما يجذبان السلاسل إلى أن صرخ بهما الرجلان، فجلسا، ولساناهما الأحمران ممتدان خارجاً.

وقال لها الرجل من خلفها آمراً ثم دفعها بمقدمة البندقية:

- تحركي!
- كاحلي مصاب.
- لا يهم. . . تابعي سيرك!
- لا أستطيع!

رفعت قدمها، لتريهما ما أصابها. نظر الرجال الثلاثة إلى كاحلها

الذي تورم سريعاً. فقالت وهي ترتجف:

- إنه يزداد سوءاً.

تحرك الرجل الواقف خلفها بسرعة، وقبل أن توقفه حملها وكأنها طفل وألقاها على كتفه. فصاحت بدهشة:

- هاي. . . ماذا تفعل؟

وسار بها نحو البوابة، وشعرت بالبلاهة وهي على هذا الوضع. أشعرتها قوته الفظة بالعجز والإهانة، غضبت غضباً شديداً وهي تراه يحملها وكأنها كيس بطاطا. نوت أن تسمع انريكو كوستيلا كلمات قاسية إذ كيف يجرؤ على التصرف هكذا؟ التقاط الصور أمر قانوني في هذه البلاد الحرة، ولا عذر لهؤلاء الرجال على حملهم السلاح أو استخدامه كما فعلوا منذ قليل. وهي إلى الآن لا تصدق ما فعلوا. فهي لم تتسلل إلى داخل أملاكه، بل كانت خارج السور وهذا يعني أنها ما ارتكبت جرماً فكيف يطلقون النار عليها؟ وما إن وصلت إلى آخر الطريق الخاص، أمام المنزل حتى صرخت:

- أنزلني!

أحست بحاملها يضربها على مؤخرتها فاشتعلت غضباً فوق غضب.

- اخرسي يا سيدتي.

لم تصدق ما حصل، وتوتر جسدها كله من الغضب:

- كيف تجرؤ؟ لقد ضربتني! كيف تجرؤ على وضع يدك علي؟ سأدعي عليك أمام القضاء. . . سأشكوك للشرطة. . . لا يجوز لك ضربي هذا عمل إجرامي!

كان صوتها المرتفع المرتجف ما زال يلعلع عندما أنزلت فجأة إلى الأرض ونظرت إلى الرجل الواقف أمامها، كان ينظر إلى الباب المفتوح خلفها. . . وسمعت صوتاً يسأل:

- ما هذا؟

كان صوتاً عميقاً أجش ذا لكنة أميركية ظاهرة فيها نبرة آمرة علمت صاحبها مباشرة وقال الرجل الذي كان يحملها:

- لقد قبضنا عليها فوق شجرة في الخارج يا سيدي، كانت تلتقط الصور خلسة من فوق السور.

- ادخلوها إلى المنزل.

استدار الرجل وهو يرفع خصلة شعر سوداء عبثت بها الريح. لمحت سندي وجهه الذي بدا الآن أقلّ وضوحاً لكنه طغى عليه تعبير الغضب والقوة. فأحست بمعدتها تتقلص من الخوف. قال لها الرجل وهو يدفعها نحو الباب:

- لقد سمعت ما قاله السيد كوستيلا.

ولم يكن لديها خيار سوى الطاعة، راحت عيناها ترنوان بقلق نحو الردهة الطويلة العالية السقف. بدت لها الردهة بعد الظلام في الخارج ومنظر الرجال وبنادقهم أنيقة وجميلة، ومع هذا عجز منظرها السّاحر عن إدخال الطمأنينة إليها وراحت تنظر إلى الخشب المزين بالذهب الذي يكسو الجدران وإلى الطاولة الصينية المزخرفة التي وضع عليها اناء فيه ورود بيضاء كلّفت ثروة دون شك في مثل هذا الوقت. ثم التفتت إلى التمثال الصيني على طاولة أخرى، وإلى السجادة الملونة، واللوحات الزيتية التي تحتل جانباً من الردهة، ثم أعادت نظرها إلى انريكو كوستيلا الذي كان قد سار إلى آخر الردهة وتوقف أمام أحد الأبواب مشيراً باصبعه، فدفعها آسرها إلى الأمام حيث قال له انريكو كوستيلا:

- حسن جدا... انتظر في الخارج.

عرجت سندي عمداً بينما عيناه الرماديتان ترقبانها وتتفحصانها. كانت الغرفة مكتبة ثمانية الأضلاع، أثاثها فاخر لكنه عملي. فيها كتب

مصفوفة تغطي الجدران وجهاز «ستريو» ضخم مركز في أحد الزوايا، وفي وسط الغرفة طاولة سطحها من الجلد الأحمر، فوقها كومة أوراق مرتبة. سمعت الباب يقفل، ثم تجاوزها انريكو كوستيلا ليجلس خلف طاولته على كرسي مرتفع الظهر منجد بينما كانت تقف في مواجهته.

وأسند ظهره إلى الكرسي، ويداه فوق حافة الطاولة، وأطراف أصابعه تنقر برتابة وترت أعصابها أكثر، بينما كانت عيناه الضيقتان ترمقان شعرها الأحمر الكثيف وعينيها الخضراوين المتوترتين وفمها المرتجف تحت وطأة نظراته مع أنها بذلت جهداً لتبدو أمامه متماسكة.

وانفجرت به قائلة بخشونة:

- لا يجوز أن تجبرني على الدخول إلى منزلك! أنا لم أطأ أرضك ولدي مطلق الحرية في تسلق شجرة! رجالك...

- اصمتي!

أحست بصوته يلسعها كالسوط، توقفت عن الكلام مصدومة قبل أن تستعيد جأشها لترد على لهجته مرتجفة:

- لا تكلمني بهذه الطريقة!

- سأكلمك كما أشاء! اجلسي.

- لا... لن أجلس.

حدق إليها وفي عينيه سخرية أشعرتها بالغباء!

- أرى أنك غبية إضافة إلى أنك متهورة، آنسة...؟

- مورتيمور.

ندمت على الفور لأنها نطقت اسمها، فلا شيء يجبرها على ذكره.

- هل لديك اثبات على صحة هويتك؟

- بالطبع لديّ! لكن لما يجب أن أريك إياها؟ فأنا لم أخترق قانوناً، بل رجالك فعلوا هذا، لقد أطلقوا النار علي عامدين متعمدين!

قطب انريكو كوستيلا حاجبيه وقست نظراته :

ـ هل أصابوك؟ أعتقد أنهم أخطأوا . . . وهذا قلة احتراس . فلو كانوا ماهرين كما هو مفروض لأصابوك ، لكنهم يقيناً ما صوّبوا بنادقهم إليك .

واحمر وجهها أكثر من جرّاء سخريته فهي لا تعتقد أن اطلاق النار عليها أمر مسل حتى وإن أراد المسلح أن يخطئها . تفاعلت الكراهية في ذاتها فقالت له غاضبة :

ـ ليس الموضوع أن يصيبني أم لا إنما هو توجيه البندقية إلى مواطن آمن .

وتمتم انريكو كوستيلا :

ـ لم لا تجلسين آنسة مورتيمور قبل أن تقعي؟ أم تنتظرين مني أن أحملك إلى الكرسي؟

قفزت سندي على رجل واحدة لتجلس على الكرسي . وهي تتنهد بارتياح إذ كان كاحلها يؤلمها وقد ورم كثيراً .

ـ لماذا التقطت الصور من فوق سور منزلي آنسة مورتيمور؟

ـ إنه منزل جميل . . . وظننت أن صورته ستكون جميلة .

ـ هل تعيشين هنا؟

ترددت ثم هزت رأسها بالإيجاب . فسألها :

ـ أين تسكنين؟

ـ هذا شأني .

ـ أعتقد أنه قد أصبح شأني الآن .

ـ لا يجوز أن تستجوبني كمجرمة ، فأنا ما ارتكبت جرماً وإذا كنت تشك في هذا استدع الشرطة فأنا لم أتعدّ على أملاكك بل كنت خارج السور . . .

تمتم بسخرية :

ـ والآن أنت في الداخل .

ولكن رغم لهجته الناعمة التي سمعتها إلا أن التهديد الذي يشير إليه جعلها ترتجف . ومد يده إليها وهو يقول :

ـ أعطني الكاميرا .

هزّت رأسها رافضة ، فسألها :

ـ كم عمرك؟

نظرت إليه باستغراب :

ـ أربعة وعشرون . . .

ـ هذا يعني أنك في عمر يسمح لك بمعرفة متى يكون من الحكمة أن تفعلي ما يطلب منك . هل أنت صحفية؟

اتسعت عيناها بدهشة مصطنعة :

ـ صحفية؟ لا بالطبع لا! إذا لم تتصل بالشرطة فسأتصل أنا .

مالت إلى الأمام لتلتقط أقرب هاتف لها ، لكن يده أمسكت معصمها قبل أن تصل إليه . أحست بقبضته القاسية توشك أن تهشّم عظامها :

ـ اجلسي!

خرجت الكلمة من بين أسنانه وشفتاه ترتجفان غضباً ، وقررت أن من الحكمة الخضوع لأمره . فقالت :

ـ إن لم تدعني أخرج الآن فاعلم أنني ما إن أخرج حتى أتصل بالشرطة محدثة لك فضيحة تتمنى بعدها لو أنك لم تشاهدني قط .

ـ أنا أتمنى هذا منذ الآن . . . والآن . . . الكاميرا ، أرجوك!

ـ إنها ثمينة ولا استطيع تحمل خسارتها ، فإذا أصابها شيء ، سأعتبرك مسؤولاً .

ـ ستأخذينها عندما تغادرين هذا المكان .

جعلها وعده تطمئن إلى أنها ستخرج بعد قليل ، فأخرجت حمالة

الكاميرا ببطء من فوق رأسها وأعطته إياها. وراقبته باستياء وهو يفتحها ويعرض الفيلم للنور قبل أن يضع الكاميرا على الطاولة، ويرمي الفيلم في سلة المهملات. فسألته وهي تحاول النهوض:

ـ هل لي بالانصراف الآن؟

ـ أولاً... أريد إثباتاً لهويتك... ولن أسمح لك بالذهاب قبل أن أعرف أنك شخص قد لا تحب الشرطة استجوابه.

أخرجت محفظتها على مضض، من جيبها لتظهر له رخصة القيادة:

ـ إذاً، عنوانك في لندن.

ـ هذا صحيح.

أخذت تنظر إليه وهو يقلب الأوراق الثبوتية داخل المحفظة، تذكرت فجأة أن فيها بطاقة الدّخول إلى مبنى الصحيفة، وقفز قلبها عندما وصلت أصابع انريكو كوستيلا إليها، ثم توقف ليسحبها من مكانها ببطء، وليضعها على الطاولة بينما نظراته تنتقل إليها:

ـ إذاً، أنت لست صحفية... أنت كاذبة آنسة مورتيمور.

ـ أنا لست كاذبة فأنا مصورة لا صحفية.

ـ الأمر سيّان.

وقف، فتوترت أعصابها، واستعدت لما قد يفعله، ولكنه سار نحو الخزانة وأخرج زجاجة شراب وصب لنفسه قدحاً ثم أضاف إليه بعض الصودا، ودون أن ينظر إليها سألها:

ـ هل تحبين أن تشربي شيئاً؟

ـ لا... شكراً لك.

ليتها تعرف بما يفكر أو ماذا يجري في هذا المكان المُسلّح؟ فلماذا يتجول كل هؤلاء بأسلحتهم في فناء المنزل؟ وماذا لديه في المنزل حتى يستدعي الأمر كل الترتيبات الأمنية هذه لحمايته؟

استدار إليها يحمل كأسين، قدم إليها أحدهما قائلاً:

ـ هذا مرطب ستحتاجين إليه.

قبلت الكأس على مضض فيما جلس هو على حافة الطاولة على مسافة قريبة منها يُحدّق في وجهها.

ـ هل أرسلتك صحيفتك إلى هنا؟

ـ لا.

ـ لماذا أنت هنا؟ لماذا التقطت هذه الصور؟

ـ لقد قلت لك... هو فضول فقط ليس وراءه نيات خبيثة.

ـ ومع ذلك فأنت تعرفين من أنا؟

ـ لقد رأيت صوراً لك... أنت رجل شهير. ولقد تناهى إلي أنك اشتريت هذه المزرعة، فأحببت أن التقط بعض الصور من باب الفضول وهذا ليس ضد القانون، فكل من يمر من هنا يستطيع رؤية المنزل عبر الأشجار، ولا تستطيع منع الناس من رؤيته، أو أخذ صور له.

سألها بلهجة ازدراء:

ـ هل سمعت عن شيء يقال له انتهاك الخصوصيات وسريتها؟

احمر وجهها ثانية، بينما بقيت عيناه الباردتان مسمرتين على وجهها، مسبّبة لها وخزاً في جسدها كله:

ـ ماذا تفعلين في هذا الجزء من البلاد؟

رفعت رأسها مبتسمة بتحدٍ في وجه انريكو كوستيلا.

ـ أزور بعض الأصدقاء.

ـ من هم؟

ـ لقد أجبت على ما يكفي من اسئلتك... أما الآن فأريد المغادرة، لأن الوقت تأخر وأصدقائي لا ريب ينتظرون ولعلهم يتصلون بالشرطة لاحقاً إن بقيت محجوزة. وأخالك لا تريد أن تشرح للشرطة سبب

احتجازك إياي رغم إرادتي. صحيح قولي؟

نهضت فنوس أيضاً: بدا لها رجلاً قوياً مفتول العضلات متينها طويل القامة رأسها يكاد لا يتجاوز كتفيه. رغم رغبتها الشديدة إلى المغادرة، كانت تحس أيضاً بسحره، فلم يحدث أن التقت رجلاً مثله يثير في نفسها الحذر والخوف في آن. . . ومع ذلك فهو أكثر الرجال جاذبية.

امتدت يده فجأة إلى ذقنها لترفع رأسها عنوة فكان أن التقت عيناها القلقتان بعينيه وإذ بصوته يأتيها همساً:

ـ أوقعتني في ورطة آنسة مورتيمور. وها أنا حائر في ما أفعل بك فأنت ما صارحتني منذ البداية لذا لا أدري إن كنت سأسمح لك بالذهاب واعتقدني مضطراً إلى الطلب منك البقاء في منزلي الليلة.

أحست نبضات قلبها تتسارع بشدة ثم ابتلعت ريقها قائلة:

ـ لست جاداً. . . هذه سخافة، لا تستطيع حجزي رغم إرادتي!

ـ لا داعي للخوف أعطيك وعداً بأنك ستكونين آمنة هنا.

ـ هل تنتظر أن آخذ بوعدك وأصدقه؟

ـ ليس أمامك خيار آخر.

أحست بالغضب وقد رأت أن لا خيار آخر لديها فثمة رجل مسلح في الناحية الأخرى من الباب متأهب لاستخدام سلاحه. جلست على كرسيها:

ـ لماذا لا استطيع الخروج؟ ماذا تدبر هنا؟ لماذا تخاف أن يكتشف أحد شيئاً؟ ولماذا ادوارد كاوندي موجود هنا؟

زلّ لسانها بذكر اسم رئيس الوزراء الافريقي، وما إن ذكرت الاسم حتى لاحظت أن وجه انريكو كوستيلا قد تجهم. فقال انريكو ببطء:

ـ إذاً لقد شاهدته؟ أم أنك عرفت مسبقاً أنه هنا؟

ـ لا . . . لم يكن لدي فكرة إطلاقاً.

ـ هذا ما تدّعينه أنت؟

ـ إنها الحقيقة!

ـ ليتها كذلك. إنه لمن سوء حظك أنك قد رأيت السيد كاوندي الذي لا أريد أن يعرف أحد شيئاً عنه قبل عودته إلى بلاده. هذا يقتضي مني حجزك إلى أن يصل.

نظرت بائسة إلى قدمها مقاومة القلق الذي أشعرها بالبرد ودفعها إلى حافة البكاء.

ـ قدمي مصابة بشكل سيء، ويجب أن أرى طبيباً، أظن أن العظم مكسور.

قطب حاجبيه ثم انحنى ليرفع سروالها قبل أن يفك بلطف السنيكرز ثم يشرع في فرك القدم المصابة، تألمت سندي وبدأ العرق يتفصد من شفتها العليا وجبينها، فأغمضت عينيها وقد اشتد الألم، بعد أن نزعت حذاءها حتى خشيت أن يغمى عليها.

تلمست أصابع انريكو كوستيلا الباردة مكان الورم فخفّ الألم قليلاً. نظرت إليه ضاحكة:

ـ إنه منظر غير جميل. . . أليس كذلك؟

ـ لكنها ليست مكسورة، لقد التوى المفصل الذي علينا ربطه لك وبعد ذلك عليك البقاء في الفراش يوماً أو يومين لأن الراحة هي كل ما تحتاجينه.

أحست بالراحة للحظات ولكنها تذكرت أن عليها مغادرة هذا المكان. كما عليها أن تقنعه بإرسالها إلى طبيب، وهذا يعني الاتصال براندل وإعلامه بمكان وجودها، حينها سيضطر كوستيلا إلى تركها تذهب.

فسألته بسخرية:

- هل أنت طبيب مختص؟ كاحلي بحاجة إلى صورة أشعة لنتأكد من أنه ليس مكسوراً.

وقف انريكو كوستيلا وهو يقول:

- أعرف الكثير عن العظام المكسورة فلديّ مزرعة في أريزونا وكثيراً ما يقع شخص كاسراً ذراعه أو رجله ولأن المسافة بعيدة عن أقرب طبيب اضطر إلى معالجة الحالات بنفسي وقد تعلمت منها التميز بين الكسور والرضوض. إنها خدعة جيدة آنسة مورتيمور، لكنك باقية هنا.

ارتجفت من الغضب والتمعت عيناها الخضراوان:

- لا يمكنك ابقائي هنا رغم إرادتي... هذا نوع من الاختطاف! هل تشعر بالقوة لأنك محاط بمسلحين؟ أي نوع من الرجال أنت؟ لا داعي للخوف مني!

ضحك وهو يراقبها تستند إلى حافة طاولته:

- هل انتهيت؟

- لا... لم انته بعد، ستدخل السجن لفترة طويلة لما تفعله معي في هذا البلد. وعندما أخرج من هنا... سأجعل حياتك جحيماً.

- أصدقك، وها أنت تفعلين هذا منذ الآن.

- كم من الوقت تظن أن بإمكانك حجزي؟ إذا لم أظهر الليلة فسوف يتصل اصدقائي بالشرطة التي ستشرع بالبحث عني.

- اعطني رقم هاتفهم وسأطمئنهم إلى سلامتك.

اخذت تصر على أسنانها بنفاذ صبر، ثم بطريقة طفولية، قالت:

- قدمي تؤلمني جداً!

- سأضع عليها كمادة باردة بعد دقيقة ثم اربطها.

ابتسم لها بظرف، ولكنها لم تشعر بالراحة لنظرة السحر التي تطل من عينيه.

- أبعد يديك عني، فأنا لا أريد أن تلمسني!

- كما تشائين... ولكن مدبرة المنزل ليست هنا الآن، وليس هناك امرأة أخرى... هل تفضلين أن يقوم الحارس بهذا العمل؟

- لا... لا أريد، أريد أن يراني طبيب مختص.

فتنهد، ثم تراجع قليلاً لينظر إليها:

- آنسة مورتيمور... ثمة أسباب هامة تدفعني للتأكد من عدم مغادرتك المنزل قبل يوم أو يومين. فقد أتى السيد كاوندي إلى هنا لاجراء محادثات سرية معي وما اخترنا بريطانيا مكاناً للعشاء إلا لأنها بلد محايد لكلينا. وهذا المنزل يؤمن لي أقصى درجات الأمن. من الضروري أن لا تتسرب اية انباء عن لقائنا قبل أن نكون مستعدين لإعلانها بأنفسنا. ومن المؤسف أنك أوقعت نفسك وإن صدفة في هذا الأمر وعليك تحمل النتائج. منزلي هذا مريح، وإذا كنت متعقلة تستطيعين التمتع بإقامتك القصيرة هنا دون أن تتضرري وإذا اعطيتني وعد شرف بأن لا تحاولي الفرار، فسأعاملك كضيفة مرحب بها. ما قولك؟ أرجوك لا تضيعي المزيد من وقتي فالسيد كاوندي ينتظرني على العشاء لكنني أعتذر عن دعوتك لأن بيننا أموراً سرية يجب أن نتباحث بشأنها، لكن السيد كاوندي سيغادر ليلاً عائداً إلى بلاده، وعندما يصل إليها سأطلق سراحك.

نظرت سندي إلى الأرض على مضض وقد أدركت صحة ما يقول، والوضع الذي اقترحه معقول لكن عندما يطلق سراحها ستتصل بوالتر لتخبره القصة التي ستكون سبقاً صحفياً موفقاً، وسبباً في ترقيته.

سألها انريكو كوستيلا:

- هل اتفقنا؟

- حسناً، اعتقد هذا، أنا أقيم مع صهري الدكتور راندل لاوسون...

- لاوسون؟ جاء أمس ليرى مدبرة منزلي... آه... فهمت... هو من أخبرك إذن...

ـ لا . . . لقد سمعت عنك . . . فالشائعات تتداول أن رجلاً يدعى كوستيلا قد اشترى هذا المنزل لكن لم أتيقن من أنك المشتري، أما راندل فلم يفدني بشيء لأنه كتوم لا يحدِّث أحداً عن مرضاه.

ـ أنا لست أحد مرضاه، كما أني لم أقابل صهرك من قبل، ولكن كل من يدخل عبر البوابة ويخرج منها. . . تضبط تحركاته كتدبير احترازي، وقد علمت أنه كان هنا.

وتقدم من الطاولة ليضغط على زر، فتفتح الباب ودخل الحارس:

ـ هل لك أن تحضر ماء دافئاً ومنشفة وبعض الرباطات لقدم الآنسة مورتيمور؟

فأحنى الحارس رأسه ثم خرج مغلقاً الباب وراءه فسألها انريكو:

ـ هل أتيت إلى «نورفولك» لقضاء عيد الميلاد؟

فهزت رأسها وهي تتنهد:

ـ أتمنى أن تتركني أذهب قبل أمسية الميلاد. أنا أقضي الميلاد دائماً مع شقيقتي وعائلتها، فهي مناسبة للبقاء مع الأطفال. . .

نظرت إليه بفضول وسألته:

ـ هل أنت متزوج؟

ـ لا . . . وهذه المعلومة تستطيعين الحصول عليها من كتب التعريف عن المشاهير. . . ولكن أرجوك لا تحاولي تسجيل مقابلة معي آنسة مورتيمور فهذا ما لا أسمح به للصحافة عادة.

ـ أعلم هذا، ولهذا السبب تهتم الصحافة بك جداً.

ابتسم وقال:

ـ آسف لأنني حرمتك من سبق صحفي. فهذه الصور كان يمكن أن تباع بسعر مرتفع، كما أعتقد.

فردت عليه بمرارة مع أنه لم يبد أسفاً.

ـ أنت تعلم جيداً هذا الأمر.

دخل الحارس في هذه اللحظة وهو يحمل صينية عليها وعاء ومنشفة بيضاء نقية، وعلبة كبيرة مرسوم عليها الصليب الأحمر. وضعها على الطاولة، فقال له انريكو:

ـ ستشغل الآنسة مورتيمور الغرفة الزهرية، اذهب وتأكدْ أنها جاهزة أتسمح؟ ستتناول العشاء فيها الليلة، إنها بحاجة لإراحة قدمها.

ـ حسناً سيدي.

وخرج الحارس الجاف الوجه كقطعة من خشب.

تقدم انريكو منها ووضع الصينية أرضاً ثم ركع أمامها.

ـ ضعي قدمك في الماء.

لمّا غطست سندي قدمها في الماء الدافىء شعرت براحة فتنهدت بسعادة:

ـ هذا أفضل؟ سألها انريكو.

ـ أجل شكراً لك.

بعد دقائق، أمسك قدمها المصابة ثم وضعها على المنشفة المفروشة فوق ركبتيه، وأخذ يربت الجلد المبلل ليجففه قبل أن يثبت الرباط بإحكام. ثم وقف وأعاد الصينية إلى الطاولة، ونظر إليها متفحصاً:

ـ هل تريدين أن تُحملي ثانية، أو تتكئين على الحارس وتقفزين على رجل واحدة؟ علي الآن أن أنضم للسيد كاوندي، فهو لا بد الآن يتساءل عما حصل.

ـ سأقفز على رجل واحدة.

وضحكت فجأة، فقال انريكو:

ـ اعتقدت أنك ستختارين هذا. . . سيعطيك الحارس إحدى بيجاماتي. لا أظن أن ثياب نوم مدبرة المنزل القصيرة القامة تناسبك.

فترددت سندي قليلاً، ثم قالت:

ـ ألا تسمح لي بالاتصال بشقيقتي لأطمئنها؟ فهي دون شك قلقة!

ـ لا تقلقي سيعلمون خلال ساعة أنك بخير ولكنني الآن لن أخاطر بالسماح لك بالتحدث إلى أي شخص خارج هذا المنزل. ولقد شرحت لك السبب فمن الضروري جداً أن لا تتسرب كلمة عن هذا اللقاء.

ـ لن أقول شيئاً عن السيد كاوندي!

ـ أنا آسف.

استدعى الحارس الذي سارع إلى مساعدة سندي في الوصول إلى غرفتها، ثم إلى السرير، فغرقت داخله، وهي تتأمل بفضول الغرفة العاجية الزهرية اللون والسجادة الزهرية الفاتحة وأغطية السرير المصنوعة من الساتان الزهري الثمين المتدلي إلى الأرض.

قال الحارس:

ـ أرجو أن تكوني هانئة هنا. هناك الحمام، وضعت لك فيه بضع بيجامات. سيكون العشاء جاهزاً بعد نصف ساعة، وإذا احتجت شيئاً اطلبي الرقم ستة على الهاتف الداخلي يا آنسة، لا تستخدمي الهاتف للاتصال الخارجي لأنه لن يستجيب لك.

وقالت ساخرة:

ـ آه طبعاً.

فضحك قائلاً:

ـ لقد نقلت الهاتف الخارجي يا آنسة، أنا آسف، يجب أن أقفل الباب عليك...

وسمعت المفتاح يدور في القفل، فسارعت إلى إقفال الباب من الداخل ثم دخلت الحمام فاغتسلت ثم ارتدت البيجاما التي كانت أطول من مقاسها بكثير وهي من الحرير الأسود الناعم لم تستطع ابقاءها مطوية

الأرجل لذا؛ قررت بنفاذ صبر أن ترتدي فقط السترة، والتي وصلت إلى تحت ردفيها. بعد عشر دقائق سمعت طرقات على الباب، تبعه صوت المفتاح في القفل ووجدت سندي نفسها تحدق إلى انريكو كوستيلا وهو يحمل صينية، كانت جائعة ومع ذلك لم تستطع التفكير بالطعام الذي جلبه لأنها كانت تتورد خجلاً تحت تأثير نظرة عينيه الرماديتين المتفحصتين اللتين راحتا تتنقلان من وجهها المغسول، الخالي من المساحيق فالياقة المفتوحة للبيجاما السوداء الحريرية، إلى بشرتها البيضاء الناعمة البادية من تحتها، فشدت الغطاء لتغطي عنقها، ويداها ترتجفان، وسألها ببرود:

ـ هل أنت مرتاحة؟

تقدم ليضع الصينية على ركبتيها:

ـ أرجو أن يعجبك الطعام. فبسبب غياب مدبرة المنزل كان علينا الاعتماد على فتاة من القرية. وهذا أفضل طعام تستطيع طهوه، روستو بالدجاج.

ـ لقد ظننت أنك قلت إن لا امرأة في المنزل.

ـ أنت حادة الملاحظة آنسة مورتيمور، أنا لم أردها أن تراك. إنها لا تخرج دائماً من المطبخ، وليس لديها فكرة عمن أكون كما أنها لم تشاهد السيد كاوندي...

ـ لا تتهمني أنا بالكذب!

ـ لقد جلبت لك كوب شوكولا ساخنة اشربيها قبل أن تبرد.

التقطت الكوب، وأخذ يراقبها وهي تحتسيه حتى آخر قطرة. وعندما فرغت أعطته إياه مبتسمة. فقال لها بصوت ناعم:

ـ البيجاما لا تبدو علي جميلة كما هي الآن. لا بد أنها طويلة عليك.

ولم ترد سندي أن يعرف أنها ترتدي القسم العلوي منها فقط، فقالت:

ـ هل اتصلت بعائلتي؟

ـ أجل. . .

ـ اوه. . . ماذا قلت لهم؟ ليس الحقيقة بالطبع.

ـ بالطبع لا. قلت ما يطمئنهم. طعاماً هنيئاً سأرسل إليك بعض القهوة.

وقالت له وهو يهم بالخروج:

ـ هل يجب أن تقفل الباب؟ فأنا أخاف من الأماكن المقفلة.

ـ أتعطيني وعداً بأن لا تحاولي الهرب؟

ـ أجل.

فابتسم وقال:

ـ إذاً. سأتركه مفتوحاً.

لكنه أفسد كرمه عندما أضاف ببرود:

ـ سيكون الحارس يقظاً في أسفل السلم ولا مخرج آخر للمنزل.

وقذفته سندي بإحدى الوسائد، فسمعته يضحك وهو يغلق الباب.

أما الوسادة فوقعت أرضاً دون أن تمسّه. . . يا ترى ماذا أخبر راندل؟ ما الكذبة التي اخترعها؟ والتر الذي سيتصل بها في الغد، سيستغرب اختفائها. ليتها تعرف ما أخبره انريكو لراندل، وكيف استطاع أن يبرر غيابها الفجائي؟ لن تستطيع الانتظار إلى أن تخبر والتر بالقصة التي ستتصدر الصفحات الأولى والتي ستدفع والتر إلى الأمام.

وعندما انتهت من تناول الطعام، وضعت الصينية على الأرض، ثم استلقت في الفراش وهي تشعر بالسأم من هذه الجدران الأربعة وتريد العودة إلى منزل هيلدا لتستعد مع العائلة للميلاد الذي أفسده انريكو. آه ليتها لم تره قط.

●●●

٣ ـ بين ذراعيه

عندما أحضر الحارس القهوة بعد عشر دقائق أشاح بوجهه تأدباً لما رآها تغطي نفسها بملاءة السرير. أخذ صينية الطعام ووضع مكانها صينية عليها إبريق قهوة، ووعاء فضي صغير يحتوي على الحليب وآخر يحتوي على السكر، وفنجان مع صحنه، ومزهرية صغيرة فيها وردة بيضاء. هل وضعها الحارس لها أم انريكو كوستيلا هو من وضعها بنفسه. سألها وعيناه إلى الأسفل:

ـ أتريدين شيئاً آخر يا آنسة؟

ـ لا. . . لكن لا تقفل الباب، فالسيد كوستيلا قال. . .

ـ أعلمني السيد كوستيلا بذلك.

بعد أن خرج متثاقلاً. قفزت على قدم قفزة قفزة حتى وصلت إلى الباب الذي أقفلته من الداخل. سمعت وقع خطوات الحارس تبتعد إلى غير رجعة لأنهم جميعاً يعلمون أن لا سبيل لها إلى الهرب فهي لو تسللت لطالعتها تلك الكلاب المرعبة المنتظرة في الحديقة، هذا دون ذكر المسلحين.

لم تعرف كم من الوقت مضى عليها قبل أن تستفيق مذهولة وهي تجد نفسها في غير شقتها لكن لم تمض هنيهة حتى وعت أين هي. كانت الأصوات الآتية من الأسفل قد أيقظتها فهبت من السرير، ثم ارتدت

الجينز وفتحت الباب بهدوء، وراحت تنصت:

ـ رحلة موفقة ادوارد. . . !

كان صوت انريكو كوستيلا الذي علا كأنه ينادي شخصاً ما. تسللت سندي بهدوء إلى نهاية الممر ومنه إلى رواق السلم الذي استندت إلى جانبه الخشبي بحذر لتنظر إلى الردهة في الأسفل فلم تر للحارس أثراً لكنها شاهدت ظهر انريكو الطويل العريض يقف عند الباب وذراعه مرتفعة بحركة وداعية بينما الريح تنفخ بقوة مشعثة شعره رافعة السجادة تارة مخفضة إياها طوراً إلى الأرض وصفق باب في مكان ما ورأت انريكو يدخل المنزل، عندها أسرعت للانسحاب إلى الخلف، وأعصابها تقفز قفزاً مصغية بانصات إلى أي صوت قد يحذرها مما يقوم به.

سمعت صوتاً على السلم أعلمها بأنه يصعد إلى هنا! ذعرت فتراجعت لكنها بحركتها تلك اصطدمت بساعة قديمة مسندة إلى الحائط من خلفها راحت ترن كأنها عصفور مذعور في قفص.

اجتازت خطواته درجات السلم ثلاثاً ثلاثاً ليصل بأسرع ما يمكن. لما رآها حدّق فيها بتقطيبة فاقدة الصبر:

ـ ماذا تفعلين هنا؟

ـ لقد ذهب السيد كاوندي الآن، هل ستتركني أذهب؟

ـ هل كنت تسترقين السمع؟ كان علي أن أقفل عليك الباب! لأنك لست ممن يجلسون هادئين حين يطلب منهم ذلك. أنا الآن أراهن بأن الشيء الوحيد الذي تعرفينه عن الخوف من الأماكن المغلقة هو كيف تلفظينه فقط.

فسألته ببرود:

ـ كيف تمت المباحثات؟

فرد عليها بسخرية:

ـ وهل تتوقعين أن أجيبك؟

ـ كم مليوناً ستقرضهم؟

ـ كم المبلغ الذي سمعته؟

بدا عليه الغضب. وحدق فيها فعلمت أنه يفكر بالحديث الذي دار بينه وبين ضيفه في الردهة ولعله يتساءل كم سمعت منه. وكانت على وشك أن تعترف أنها لم تسمع شيئاً، ولكن فلتدعه يقلق، لو أنها استيقظت أبكر مما فعلت لاستطاعت تجميع معلومات مهمة لوالتر، مع أن من المشكوك فيه أن تستخدم الجريدة هذه المعلومات كي لا تسيء إلى ادوارد كاوندي.

استدارت لتعود إلى غرفتها، فتعقبها انريكو ومن فوق كتفها قالت له:

ـ قد تحسب نفسك القانون ولكنك قريباً ستجد أنك لست كذلك. حتى الآن جمعت أربعة اتهامات ضدك: الاختطاف، محاولة القتل، الاعتداء الجنسي. . .

قاطعها بحدة:

ـ ماذا؟

ركضت سندي نحو غرفتها، وأغلقت الباب بسرعة، ثم حاولت إقفاله من الداخل. إلا أنه وضع كل ثقله من الناحية الأخرى، ففتح الباب عنوة وتخلت سندي عن المقاومة فهربت تاركة طاولة صغيرة أنيقة من خشب الورد حاجزاً بينهما.

توقف انريكو، وهو ينظر إليها قائلاً:

ـ لقد تماديت كثيراً يا آنسة مورتيمور.

لم تخف لهجته الناعمة الغضب المستعر في عينيه الرماديتين. أردف قائلاً:

ـ أنا لم أعد أجدك مسلية.

احمر وجه سندي وتصاعد غضبها:

ـ لم أمازحك!

ـ وهل ستتهمينني حقاً أنني...

وتوقف عن الكلام وبدا وجهه أقسى مما كان، وعيناه حادتان كشفرة من فولاذ، ثم تابع:

ـ أم أنك تخبرينني أن شخصاً ما قد... هل هو الحارس، هل لمسك الحارس؟

ـ لمسني؟ لقد حملني فوق كتفه، وضربني على مؤخرتي عندما احتججت بيده، إن كنت تخال النساء يتمتعن بهذا النوع من المعاملة، فأنا أقول إنك مخطىء. اعلم إنني لن أدعك وحارسك تنجوان دون عقاب!

استمع إليها، ثم عبس وهو يقول بخشونة:

ـ ولكنك قلت «اعتداء جنسي».

ـ هل كان ليجرؤ على ضرب مؤخرة رجل وهو يضحك إن لم يكن اعتداء جنسياً فما هو إذاً؟

ـ ما فعله لا يعدو الهزل.

ـ لم يكن أمراً هزلياً بالنسبة لي لقد اعترضت بعنف!

ومرر انريكو يده فوق وجهه ببطء وضجر، وكأنه يحاول مسح خطوط الإرهاق عنه، راقبته سندي نادمة على مضض. لقد بدا تعباً حتى الموت ولكنها تريد الخروج من هنا لإبلاغ والتر القصة قبل أن تتسرب الأنباء الرسمية. وعليها أن تنكد راحته حتى يطلق سراحها. سألها بعد صمت قصير:

ـ أتعلمين كم أنت مزعجة آنسة مورتيمور؟ آخر شيء قد أرغب فيه هو مشاحنة معك. فأنا تعب، وأريد أن أنام. وبصراحة، لم تكوني سوى مثيرة مشاكل، ولقد سئمت منك.

ـ أنا آسفة.

ـ اخلعي عنك الجينز...

فأجفلت لطلبه المفاجىء:

ـ ماذا قلت؟

ـ سآخذ ثيابك معي... أريد أن اطمئن إلى أنك لن تفتشي المنزل بحثاً عن معلومات إضافية عن المحادثات. فاخلعي الجينز إذاً، أم أجبرك على خلعه؟

ـ أدر ظهرك إذاً.

ـ أدير ظهري لك...؟ لا بد أنك تمزحين... فقد تطعنينني بسكين.

ـ انظر... أنا لن...

توقفت كلمات سندي الغاضبة في حلقها بعد أن خطا نحوها، وامتدت يده إلى البنطلون. فحاولت الرجوع إلى الخلف صارخة:

ـ أبعد يديك عني!

ولكن البنطلون بدأ يتزلق، بينما الصدمة جمّدتها فلم تعتد أن يفاجئها رجل ما قبل الآن. وأكمل انريكو جذب الجينز فوق ردفيها، فتولاها الذعر، فأسرعت إلى ركله، وأصابت يديه في وقت ارتمى الجينز فيه أرضاً عندها أسرعت إلى الفراش صارخة:

ـ اتركني وشأني!

نظر إلى ساقيها العاريتين فقال وكأنه يعتذر:

ـ لقد ظننتك مرتدية سروال البيجاما تحت الجينز.

ـ لا أصدقك!

ـ سندي، هذا صحيح، وإلا لما كنت...

أدارت وجهها الخجل الغاضب نحوه:

ـ أما كنت لتفعل؟ قل هذا للشرطة. . . فقد يكون لادوارد كاوندي حصانة دبلوماسية، لكنك تفتقدها على ما أظن، وستضطر للإجابة عن سبب معاملتك إياي بهذه الخشونة! ولا تظن أن بإمكانك شراء خلاصك من هذه الورطة، لأنني سأتأكد من أنك لن تفعل!

لم يجبها، بل كان يحدق في وجهها دون أن يصغي إليها إذ أطلت من عينيه نظرة غريبة جعلت بؤبؤي عينيه السوداوين متسعين وكأنه مخدر. توقفت عن الكلام، وساد الصمت وتأملا بعضهما بعضاً وكأنهما يلتقيان للمرة الأولى. فجأة انقطعت أنفاسها وراح جسدها يحترق بحرارة مفاجئة، ورئتاها تكافحان للحصول على الهواء بينما كانت نظرة انريكو تنحدر ببطء إلى شفتيها المنفرجتين أرادت أن تقول شيئاً لتقطع هذه اللحظة المثيرة لكن شفتيها لم تنبئا بكلمة واللعاب في فمها لم يعد كما كان. كانت تعلم أنه سيعانقها وعليها القيام بشيء ما لتوقفه.

احنى رأسه ببطء شديد، فضجت أعصابها وجف ريقها وأحست بلمسته والتقى جسداهما بحرارة، فنمت الحرارة أكثر حتى خرجت عن سيطرتها، وأحاطها بذراعيه، وشدها أكثر، فاستجابت دون أن تحاول جذب نفسها عنه بل التفت ذراعاها حول عنقه لامسة شعره وقد ذاب جسدها لعناقه الذي أصبح أكثر جوعاً وتطلباً. عندما أبعدها كانت عيناها مطبقتين وخفقات قلبها تعصف بين ضلوعها كما لم يحدث أن خفقت شوقاً. لم تشأ في هذه اللحظة أن يتوقف عن عناقه لأن البرودة اجتاحتها ما إن ابتعد عنها.

كان انريكو ما يزال ينظر إليها متأملا تقاسيم وجهها وكل حنايا جسدها بإثارة وعمق حتى شعرت بالذعر والاضطراب من هذه النظرات الجائعة.

أجبرت نفسها على قول شيء ما بصوت مرتجف:

ـ هذا يكفي!

أجابها بصوت أبح: «ليس بالنسبة لي» ثم انحنى إليها من جديد، فتلوت بين ذراعيه متأوهة وقد غدا عناقه عنيفاً ومقاومتها واهنة أمام يديه المطبقتين اللتين دفعتاها إلى السرير المنتظر خلفهما:

ـ سيد كوستيلا! سيد كوستيلا أين أنت؟

قطع هذا الصوت إثارتهما، فأبعد انريكو رأسه عنها وعيناها تلمعان رغبةً. سمعت سندي وقع خطوات ثقيلة على السلم فتركها انريكو، ولونه يزداد احمراراً:

ـ ما الأمر الآن؟

ـ سيد كوستيلا. . .

قَرُب الصوت منهما فعرفت سندي المنادي فهمست وهي مصابة بالدوار من الصدمة:

ـ إنه الحارس!

فصر انريكو على أسنانه:

ـ اللعنة عليه!

ترك الغرفة بسرعة صافقاً الباب بعنف جعلها تقفز مجفلة مضطربة حتى أوشكت على البكاء وهي ترتجف من رأسها إلى أخمص قدميها مصطكة الأسنان باردة الجسم. تلف ذراعيها حول جسمها تهزه جيئة وذهاباً وكأنها طفل خائف.

لم تذكر سندي أنها فقدت صوابها يوماً كما فعلت اليوم بل لم تكن في حياتها مشوشة الفكر هكذا، إذ لم يكن احترامها لنفسها ليسمح لها أبداً بهذا، وغطت وجهها بيديها، وهي تحس بالسقم والاشمئزاز من نفسها. لا بد أنها جنت! ماذا دهاها؟ وقفت عند السرير، وقفزت نحو

الباب لتقفله. لكن يدها جمدت على مقبض الباب عند سماعها الأصوات المنبعثة من الأسفل. إنه صوت امرأة! وأعادت سندي فتح الباب لتتأكد من أنها لا تتخيل. ثم خطت مترنحة عبر الممر لتستند إلى الدرابزين ناظرة إلى الردهة.

كانت الردهة فارغة، لا أثر لانريكو أو للحارس، ولكن الأضواء كانت كلها مشعة، وكومة حقائب عند الباب الأمامي، حقائب غالية الثمن، عليها حروف اسم مذهبة على الأقفال.

أرادت سندي أن تنظر عن قرب لتعرف ما هي تلك الحروف، فزحفت إلى الأسفل، وهي مصغية لأي صوت... ولكن ما إن وصلت الردهة حتى خرج انريكو من الطرف الآخر من الردهة، وعندما رآها صاح بصوت أجش:

ـ ارجعي إلى فوق!

وكان غاضباً حتى أنها بدأت تطيعه دون أن تجادل، وقد أصبحت أعصابها محطمة من الصدمة. وما إن خطت خطوة واحدة حتى فتح باب آخر في آخر الردهة وسمعت وقع خطوات سريعة ورشيقة، فاستدارت، وأجفلت لسماع صوت ناعم يقول:

ـ انريكو، ماذا تفعل؟ لقد كنت...

توقف الصوت فجأة بعد أن شاهدت القادمة سندي التي تجمدت في مكانها دون حراك، فتابعت المرأة:

ـ يا الله...

كانت في منتصف العمر ذات شعر فضي أنيق يلف وجهاً مزيناً بدقة. وعينين زرقاوين واسعتين. تحت حاجبين جميلين مخططين ارتفعا ببطء وهي تتفحص سندي من رأسها إلى قدميها. ولم تترك شيئاً يفوتها. من

الشعر الأحمر المشعث إلى القدمين العاريتين فوجهها الأحمر. أرادت أن تختفي عن الأنظار، لتخفي طبيعة سترة البيجاما الحريرية السوداء التي لا تخفي شيئاً من جسدها فقال انريكو:

ـ أنا قادم يا والدتي.

بدا وكأنه رجل قُبض عليه في وضع حرج لم يعجبه على الاطلاق. احمر وجهه قليلاً، ولم تلاحظ بينهما تشابهاً فوالدته نحيلة جميلة الجسد أقصر من سندي، وقسماتها لا تعكس شيئاً من قسمات انريكو الداكنة. سألته والدته ونظرها لا يزال مستقراً على سندي:

ـ انريكو... من هذه...؟

تجاهل سؤالها:

ـ لن أتأخر دقيقة... عودي إلى الآخرين.

ـ لا عجب أنك جفلت عندما وصلنا لقد تساءلت لماذا بدوت وكأن قنبلة وقعت عليك... لما لم تقل أن أحداً معك؟

ـ أمي... الأمر ليس كما تظنين فالآنسة موريتمور هي... هي...

عادت روح المرح إلى سندي، فنزلت السلم ومدت يدها مبتسمة للسيدة كوستيلا:

ـ أنا سندي موريتيمور... أنا وانريكو صديقان.

ـ أجل... هذا ما أراه.

صافحتها بأدب متردد. لكن عينيها بقيتا مسمرتين على ما ترتديه سندي، وتابعت:

ـ أنا آسفة لأننا أيقظناك آنسة...

ـ سندي أرجوك فأنا لا أحب الرسميات.

ـ ألاحظ هذا...

ـ ولكنك لم توقظينا، حقاً... لقد كنا مستيقظين، ألم نكن كذلك يا

انريكو؟ لم تنم طوال الليل.

نظر إليها انريكو كوستيلا بازدراء ولكن لسبب ما لم تجده مهماً لم ينكر ما قاله أمام والدته بل ابتسم بطريقة تشبه التكشير:

ـ ارجعي إلى الفراش يا سندي... سأراك فيما بعد.

جعلتها النظرة في عينيه تتردد في إزعاجه أكثر فقررت أن تفعل ما طلبه منها. فقالت بمرح:

ـ حسناً... عمت مساء سيدة كوستيلا... سرتني مقابلتك وكم يؤسفني مغادرة المنزل عند الصباح، إذ كنت سأستمتع بالحديث معك ثانية.

وبدا على السيدة كوستيلا الارتياح وهي تقول:

ـ هل ستغادرين في الصباح؟

ـ أجل... يجب أن أذهب أليس كذلك يا انريكو؟

التقت عيناها بعينيه، وكأنها تتحداه الإنكار إذ لا يبدو أنه يحب أن يخبر والدتها حقيقة حجزها سجينة هذا المنزل فكيف سيستطيع الخلاص من هذا الموقف؟ تمتم من بين أسنانه:

ـ سنرى.

أمسك بذراعها ليجبرها على السير نحو السلم، بقوة لم ترغب في تحديها.

توقفت سندي عند الدرجة الثانية للسلم، وقد عنّت لها فكرة فانحنت فوق الدرابزين لتطبع قبلة على خده أجفلته ولتهمس بصوت مغرٍ:

ـ لا تتأخر.

أسرعت ترتقي درجات السلم وابتسامة عريضة على وجهها لأنها علمت أنهما يحدقان فيها بصمت. لم تكد تختفي عن الأنظار حتى تكلمت السيدة كوستيلا فتوقفت سندي لتستمع:

ـ انريكو... هل جننت؟ ماذا تفعل هذه الفتاة هنا؟ يجب أن تبعدها سريعاً... أريدها خارج هذا المنزل في الصباح الباكر هل تسمع؟

توقفت عن الكلام لحظة لتلتقط أنفاسها لكنها قبل أن تترك له مجالاً للإجابة أردفت:

ـ ماذا لو عرفت ميراي بوجودها؟ انريكو... يجب أن تخرج هذه الفتاة قبل أن تصحو ميراي غداً... فوجودها سيدمر كل شيء!

قال لها بصوت متوتر:

ـ لا تأمريني بهذا الأسلوب... مجيئكم غباء. ماذا دهاك؟ لماذا لم تتصلي بي؟ لماذا لم تحذريني؟ لماذا لم تبقي في لندن الليلة لأهيء نفسي؟

ـ ميراي التي كانت في شوق إلى رؤيتك أرادت أن تفاجئك وقد أصرت على المجيء مباشرة من المطار. لو كنت أعلم أنك برفقة فتاة، لما تركتها تقنعني.

أحست سندي بغيرة بلهاء... من هي ميراي؟ هل هي فتاته؟ إنه ليس متزوجاً أليس كذلك؟ سمعت انريكو يقول:

ـ يؤسفني اقتناعك بتلك الفكرة السخيفة.

وبدا الغضب في صوت أمه وهي ترد عليه:

ـ حسناً... وكيف لي أن أعرف؟ لقد قلت لي ان الأعمال وحدها هي التي تحتجزك، وإلا لأصريت على البقاء في لندن لأتصل بك وأعلمك بأننا قادمون لو كان لدي فكرة عما سنجده هنا.

ـ الفكرة كلها غباء لعين... الطيران كل هذه المسافة إلى هنا...

ـ لقد بدت فكرة طيبة لي. فعندما قلت على الهاتف انك لن تستطيع العودة قبل الميلاد، أقترحت ميراي المجيء لإدخال البهجة إلى تالك. لقد ظننت أن من دواعي السعادة قضاء الميلاد في انكلترا. وبدت لي

الفكرة رائعة. أمّا الآن فأتمنى لو بقيت في بوسطن!

بعد صمت قصير عادت السيدة كوستيلا تسأله:

ـ هل كانت محادثاتك ناجحة؟

ـ لقد طالت أكثر مما تصورت، لكنها نجحت ولن أضيف كلمة أخرى فهي كما تعلمين محادثات سرية ويجب أن تبقى هكذا في الوقت الحاضر. وعندما أستطيع سأقول لك كل شيء.

ـ هل كانت الفتاة هنا طوال الوقت؟

تنهد انريكو بانزعاج:

ـ لا أريد التحدث عنها.

ـ أنا واثقة من أنك لا تريد... حقاً يا انريكو... فتاة كهذه...

مثل ماذا؟ امتلأت سندي غضباً من كلمات السيدة كوستيلا المُشبعة بالاحتقار. وهي لا تحب أن يتحدث أحد عنها وكأنها فتاة رخيصة.

قال انريكو بحدة:

ـ اتركي الموضوع يا أمي.

ـ أنا لا أفهمك... ألا تحب ميراي؟ إنها فتاة جميلة جداً، ولطيفة... كيف تستطيع فعل هذا بها؟ انريكو... أنت تعلم أنني لا أتدخل في شؤونك.

ـ إذاً... لا تتدخلي الآن.

ـ لا تكلمني على هذا النحو الذي لا أطيقه. قد تُصدر الأوامر لمن يعمل عندك، ولكني لن أسمح لك بأمري أنا والدتك!

أجابها انريكو بصوت هادىء:

ـ عودي إلى الآخرين سألحق بك بعد قليل. هل حضر لكم الحارس السندويشات والقهوة؟

ـ أجل، وقد أجهز عليها كلها توبي الجائع دائماً. ولست أدري لماذا

يبقى نحيلاً هكذا. هذا ليس عدلاً... فأنا دائماً أتبع حمية مكتفية بما يبقيني حية. مسكينة ميراي كل ما رغبت فيه هو الحليب الساخن. لقد كان الجو بارداً والتدفئة في السيارة غير كافية. كدنا نجمد قبل وصولنا... هل تظن أن الثلج سيهطل؟

ـ اذهبي واشربي القهوة الساخنة قرب النار. سيدفئك هذا.

ـ عدني أن تغادر تلك الفتاة في الصباح. أرجوك يا انريكو! كيف يمكنك أن تفعل هذا بميراي؟ لم أكن اعتقد بأنني سأقول لك هذا، ولكنني خجلة بك... أنا لست قديمة الطراز ومتباهية، وأنت تعلم هذا. واعلم أن مقاييس الأخلاق تغيرت إلى أبعد حد في هذه الأيام. وأرى أن الفتاة جذابة، بطريقة ما، واعتقد أنك تظنها مثيرة. مع أنني لا استطيع فهم ما يراه الرجال في فتاة من طرازها، فحمراوات الشعر سمجات كما أنها لم تبدو لي طبيعية، بذلك الشيء الأسود الذي ترتديه... لم استطع تصديق ما أرى... من يمكنه أن يرتدي مثل هذا الشيء؟

ـ أنا... إنها ترتدي سترة بيجامتي.

فشهقت والدته وقالت:

ـ انريكو!

ـ لقد أعرتها إياها لأنها لا تملك ثياب نوم هنا.

ـ يجب أن أحمد الله لأنها ترتدي شيئاً ما.

ـ أمي... أنت تستنتجين أشياء خاطئة لن أفسّرها الآن لكن اعلمي أنك تكدرين نفسك من لا شيء. الأمر ليس مهماً.

ـ نعم هكذا استطيع أن أصفها... إنها ليست مهمة إطلاقاً وأنا سعيدة لأن تقول هذا.

سمعت سندي ما يكفيها، فاستدارت ذاهبة إلى غرفتها لتغلق الباب من الداخل على نفسها. كان القمر قد برز، مرسلاً أشعة باردة ملتفة على

السقف والجدران. وبدأت الريح تعوي كذئب يدور حول المنزل، تصرخ عبر الأشجار والقنوات. لقد كرهت انريكو كوستيلا ووالدته، وغداً إن لم يدعها ترحل ستجعله يندم!

●●●

٤ ـ يدان خاليتان

استيقظت سندي لتجد أن أشعة الشمس قد غمرت الغرفة. كانت تحس بصداع سببه دون شك الساعات التي حرمت فيها النوم في الليلة السابقة.

نفضت عنها الأغطية، فارتدت ملابسها بسرعة ثم راحت تنصت بانتظار سماع صوت ما، لكن بدا لها أن الوافدين الجدد سيُصحُون في النوم فالساعة تجاوزت العاشرة وما من حركة. تساءلت متى ستفطر؟ وجلست أمام طاولة الزينة لتسرح شعرها، وتضع بعض المساحيق على وجهها، فلن تقابل ميراي المجهولة دون «صباغ الحرب»!

التقطت الكاميرا وحقيبة اليد عن الكرسي قبل أن تغادر الغرفة التي ربما لن تراها ثانية لأن انريكو قد يأذن لها بعد الفطور بالرحيل.

عندما تذكرته أحست بنبضات قلبها تتسارع إذ كيف غازلها وهو مرتبط بفتاة أخرى... زوجة؟ هل هو متزوج من ميراي؟ كم كرهت نفسها لأنها سمحت له بلمسها.

تقدمت إلى الباب تفتحه خائفة من أن يكون انريكو قد أقفله عليها من الخارج أثناء الليل، ولكنه فتح. فتنهدت بارتياح. وتحركت ببطء في الممر، مصغية. قدمها التي ما زالت تؤلمها منعتها من انتعال الحذاء فوق الرباط.

www.elromancia.com مـرومـانسيـة

نظرت إلى الردهة في الأسفل لتجد الحارس جالساً أمام الباب يقرأ جريدة. كانت سندي تسير بهدوء فلم يسمعها قادمة، ونظرت إلى الممر الآخر عبر الردهة، لا بد أن الضيوف الجدد قد احتلوا الغرف فيه، هل استيقظوا يا ترى ونزلوا لتناول الطعام. هي تريدهم حاضرين عند رؤية انريكو كوستيلا لتضعه أمام الأمر الواقع فيعجز عن رفض رحيلها فوجود والدته قد أعطاها سلاحاً تنوي استخدامه. فإن كان انريكو قادراً على استغلال الفرص فهي أيضاً قادرة على الشيء ذاته.

عادت إلى غرفة نوم قريبة فارغة، ثم جلست على كرسي بعيدة عن الأنظار، منتظرة استيقاظ أحدهم للخروج من مخبئها هذا. لكن انتظارها طال حتى كادت تغفو من التعب الذي ما زالت تشعر به. بعد فترة سمعت حركة فهبت واقفة. وهي تسمع وقع خطوات ليست لانريكو لأنها باتت تعرف جيداً وقع خطواته القوية. تقدمت من الباب لتنظر إلى الخارج، فالتفت الشاب الذي يسير نحو السلم إليها وهو دهش من رؤيتها. أما هي فتنفست الصعداء. إنها لا تعرف من هو ولكنها واثقة من أنه ليس أحد رجال الأمن لدى انريكو، فهو لا يرتدي مثلهم ووجهه ليس قاسياً كوجوههم. قال وهو يبتسم لها:

ـ مرحباً! خِلتُ نفسي الوحيد الذي صحا باكراً.

توقف عن المسير بانتظار وصولها فأسرعت لتنضم إليه متسائلة عما إذا كان هو توبي الذي أشارت إليه السيدة كوستيلا بالأمس:

ـ مرحباً... أنا سندي. لا بد من أنك توبي.

ـ هذا صحيح.

رنا بطرفه إلى الكاميرا التي تحملها فسارعت للقول:

ـ أنا مصورة من مجلة «كلوب».

كان يشبه سكان المتوسط فله شعر كثيف أسود مقصوص بشكل

قصير جداً وعينان بنيتان دكناوان وبشرة بلون الزيتون، لكن من هو؟ ولماذا هو هنا مع السيدة كوستيلا وميراي المجهولة؟ هل يكون شقيقها؟

ـ هكذا إذاً؟ هل أنت هنا لالتقاط صور لانريكو؟

أجابت سندي بصوت فيه بعض المرح:

ـ أجل.

كان هذا صحيحاً نوعاً ما وإن لم يكن بالمعنى الذي قصده. لا بد أنه اعتقد أن انريكو أذِن لها بالتقاط الصور. وقال:

ـ يا إلهي! لا أصدق هذا إنه لا يسمح أبداً، أبداً، للصحافة بالتقاط صور له. يبدو أنك أثرت عليه أكثر من أي مصور آخر.

فهمت سندي ما يلمح إليه، فهو لم يقصد أن عملها متفوق وغير عادي، ومع ذلك تجاهلت تلميحه.

ـ شكراً لك... هل أنت في طريقك لتناول الفطور؟

ـ أجل... فأنا جائع جداً... الطقس البارد يجوّعني.

قالت سندي:

ـ وأنا جائعة جداً.

ـ ولماذا هذا الرباط... هل آذيت نفسك؟

ـ لقد لويت كاحلي.

كانا قد وصلا إلى الحارس، الذي وقف، وأخذت تنظر إليه عينيها، هل سيحاول إيقافها يا ترى؟ وتابع توبي:

ـ وكيف حدث هذا؟

نظرت إلى الحارس مباشرة، فلاحظت من الارتباك الظاهر على وجهه أنه لا يعرف كيف يتصرف، فهو لا يرغب في اعتراضها أمام نظر توبي، حينها قررت سندي أن تبتسم له:

ـ صباح الخير... أليس نهاراً جميلاً بالنسبة لهذا الوقت من السنة؟

www.elromansy.com

صدر عن الحارس صوت كأنه صادر عن ثور يخور. فابتسم لها ابتسامة جافة، ثم تابعت سيرها مع توبي، الذي فتح أحد الأبواب في الردهة وقال لها:

ـ هل أنت مقيمة هنا؟ يبدو أنك تعرفين طريقك في المنزل أكثر مني. كم من الوقت مكثت في هذا المنزل؟

ـ يبدو كأنه مر علي أسابيع. . . لا ليلة واحدة.

تقدم توبي نحو الطاولة وأخذ يكشف الأغطية عن أطباق الطعام واحداً تلو الآخر. قال ضاحكاً وهو يلتهم قطعة من كل طبق.

ـ أحب طعامكم الانكليزي. . . هل أنت مصورة بارعة؟ تباً لي هذا سؤال غبي. لا بد أنك بارعة وإلا لما انتدبتك صحيفتك، ولما سمح لك انريكو بدخول أبوابه.

جلست سندي وصبت لنفسها كوباً من عصير البرتقال الطازج البارد كالثلج وأحست بلذته وهي تحتسيه. وسألته وهو يجلس في مواجهتها ليصب لنفسه كوب عصير:

ـ هل سينزل الباقون؟

ـ أشك في هذا. فميراي كانت مرهقة جداً عندما ذهبت للنوم، ووالدتي لا تتناول الفطور.

نظرت إليه دهشة. والدته؟ هذا يعني أنه شقيق انريكو! لكن أين الشبه؟ انهما النقيض تماماً، فهو يختلف عن شقيقه كل الاختلاف. بنيته، عيناه، وتصرفاته الخفيفة . لم يكن ليخطر ببالها أنه من عائلة كوستيلا، فلم يكن له ذلك الوجود القوي، ولكن هل هذا يدعو للدهشة؟ فهو الأخ الصغير، الذي تربّى دون ريب في كنف أخيه مدللاً. قال لها توبي وهو يتناول قطعة خبز محمص يدهنها بالزبدة ثم بالمربى:

ـ إذا كنت ترغبين بهذا النوع من الخبز فثمة محمصة على الرف.

ـ لا بأس بالخبز العادي. . . شكراً لك.

ـ أنت لا تأكلين كثيراً كما أعتقد. أنا لا أفهم حبكنّ للحمية، ميراي تفعل الشيء نفسه، فهي تأكل ما لا يشبع عصفور، ثم تتذمر من شعورها بالتعب.

ابتسم لنفسه بعد أن احتسى قليلاً من القهوة ثم أردف:

ـ لكنها رغم ذلك تبدو جميلة.

فقالت سندي ببرود:

ـ أنا لم أرها. أهي رائعة الجمال؟

ـ رائعة الجمال؟ لن أقول إنها رائعة الجمال. هي جميلة ربما. لديها جمال مميز. . . كم ستبقين هنا؟

ـ سأغادر هذا الصباح.

قالت تلك الكلمات بتفاؤل لا تملكه ونظر إليها توبي بحدة:

ـ حقاً؟ يا للأسف. كنت آمل أن تبقي بضعة أيام أخرى لأتعرف أكثر إلى مصورة جميلة مثلك. معظم المصورين الذين شاهدتهم كانوا من الرجال.

ـ نحن قلّة لأن رؤساء التحرير يظنون أن هذا العمل خاص بالرجال فقط وعلينا نحن النسوة أن نشق طريقنا وسط ازدحام الرجال الذين يقسون علينا ولا يرحموننا اثناء إبعادنا عن طريقهم.

ورفع توبي رأسه ضاحكاً:

ـ ولكنك تنجين بنفسك دائماً؟

ـ لقد تعلمت القسوة منهم. . . فبت قادرة على أن أطأ الأقدام إن اضطررت. . .

فضحك وقال:

- لا تبدين قاسية في نظري.

- انظر ثانية.

مال إلى الأمام فوق الطاولة لينظر إلى عينيها الخضراوين مبتسماً. فجأة فتح الباب خلفهما فالتفتا دهشين وإذ بانريكو كوستيلا يدخل. توتر جسد سندي واندفع الدم إلى وجنتيها من جرّاء نظرته الباردة وإحساسها بالذنب. لكن لِمَ تشعر بالذنب وهي لم تفعل شيئاً؟ لقد جعلتها نظرته المشبعة بالعداء تعجز عن تجنب هذا الشعور.

- مرحباً انريكو... طباختك تطهو طعاماً لذيذاً لم أتناول مثله منذ سنوات.

جلس انريكو، وتناول ابريق القهوة، يصب منه:

- إذا انتهيت، اصعد لترى ما إذا كانت الوالدة قد صحت من النوم.

- طبعاً.

أسرع بالخروج... هل يركض هكذا دوماً عندما يأمره انريكو؟

تردد قليلاً، ثم نظر إليها مبتسماً:

- هل سأراك فيما بعد؟ أنت لن تغادري فوراً؟

- أخشى أن نعم.

فقاطعها انريكو عبره قائلاً:

- لا...

أدارت رأسها نحوه بغضب:

- بلى... إلا إذا سمحت لي بأخذ مزيد من الصور بالطبع، سيد كوستيلا؟

أخذت تفكر بردة فعله، إنها تقوم بمخاطرة وكأنها طفل يمشي على حافة قفص أسود تزأر. وتمتعت برؤيته دون حول أو قوة فترة قصيرة.

فقال توبي قبل أن يخرج:

- لكِ أن تصوريني متى شئت. أنا على كل أتمنى أن تبقي... سأراك فيما بعد.

بعد أن تركهما توبي راح انريكو يحتسي قهوته وأنامله تطرق على الطاولة بطريقة ذكرتها بلقائهما الأول. احترامها لنفسها منعها من الاعتراف بالخوف منه. ولكن نظرته كانت تهديداً وضغطاً، شعرت بها على مؤخرة رقبتها حادة وماضية كسكين قاطع، وقال لها:

- ماذا كنت تقولين لشقيقي؟

- كنا نتحدث.

- عمّ؟

- لا أذكر جيداً. لقد تحدث معظم الوقت عن الطعام، كما أظن.

- ولماذا كان ينظر إلى عينيك عندما دخلتُ وكأنه تلميذ مسحور بنور القمر؟ هل كنت تغازلينه؟ يجب أن تقلعي عن ذلك وأنا لا أقول قولي هزلاً. ابتعدي عن شقيقي.

- لا تقل لي ذلك... بل قله له.

أجابها بلهجة كالسّوط.

- أنا أقول لك!

ثم ضرب بيده على الطاولة في الوقت نفسه فأجفلها ووتّر أعصابها ولكنها جاهدت لاخفاء توترها، وردت عليه بخشونة:

- يحق لك أن تتودّد إليّ أما هو فلا يحق له ذلك. أهذا ما تعنيه؟

قالت كلماتها بازدراء جعل وجهه يحمر ولكنه قابل نظرتها دون أن يشيح ببصره عنها.

- ثمة شيء آخر... فلماذا قمت بهذه التمثيلية السامة أمام والدتي الليلة الماضية؟ كيف تجرأت...

- هذا جزاء فعلك، فما تزرع تحصد. ليتك تتعلم من تجربتك

www.elromancia.com رومانسيا

الجديدة.

ـ لا تدفعيني كثيرا آنسة موريتمور.

انحنى فوق الطاولة فتابع بهدوء:

ـ أنا رجل خطر، لقد أغضبتني كثيراً. فلا تعترضي طريقي مرة أخرى، لأنني لن أفسد خططي بسببك. وإلى أن يصل كاوندي إلى بلاده ويعلن عن الاتفاق رسمياً، فلن اسمح بتسريب الخبر لذلك لن تغادري هذا المنزل إلى أن أقرر. . . هل هذا مفهوم؟

ـ كيف ستبرر بقائي لوالدتك.

ـ سأذكر التبرير الذي قلته لشقيقي. . . سأقول لها إنك مصورة صحفية جئت لالتقاط الصور للمنزل. لن أدعك تسببين مشاكل أخرى بعد الآن آنسة موريتمور، كما لن أسمح لك بالعبث معي أو مع شقيقي، ولن تزعجي والدتي بتصرف مخجل معيب.

ـ معيب؟ أنا لم أرتكب ما يعيب في حياتي!

لاحظ احمرار عينيها الخضراوين فقال:

ـ عذراً يبدو أنني استخدمت كلمة خاطئة. تأكدي فقط أن لا افاجئك تقومين بأي تحقيقات بعد الآن. لقد أعطيت ذاك الانطباع عامدة.

ـ الانطباع بأنك كنت تغازلني؟

ـ لا بد من أنني كنت مجنوناً ساعتها، لقد كنت تعباً. وما أنا إلا من البشر فمطلق رجل يرى امرأة مثيرة مثلك تتجول في سترة حريرية فقط سيتملكه الإغراء.

ضحكت سندي من شدة الغضب:

ـ اوه بالطبع. . . إنها غلطتي. . . إنها دائماً غلطة المرأة، أليس كذلك؟

ـ لا تدّعي الجهل بأنك لم تدركي كم كنت مثيرة في الحرير الأسود! كان علي أن احبسك في الغرفة طوال الليل. لأن ذلك آمن وأسلم.

تحرك من مقعده فجأة، ثم ذهب ليتكىء إلى النافذة وظهره لها:

ـ سأشرح لوالدتي أنك هنا لالتقاط صور للمنزل، تستطيعين التجول في الخارج، والتقاط ما يحلو لك من صور.

ـ لكنك سرقت أفلامي!

فتنهد بنفاذ صبر:

ـ سأردها لك. التقطي ما شئت من صور للمنزل شرط أن استعيدها منك ولكِ مني أن أرسل إليك أجمل الصور وأفضلها لكنني لن أسمح لك بالتقاط صوري أو صور عائلتي فلا تهدري وقتك وأفلامك في محاولة سرقة بعض اللقطات لنا، لأن هذا لن يجديك نفعاً.

سألته سندي بمكر:

ـ ألن تسمح لي أيضاً بالتقاط صورة لك ولميراي؟

سمعته يتنفس بقوة قبل أن يستدير إليها ببطء لينظر إليها بكره.

ـ أعتقد أنك حصلت على هذه المعلومات من توبي؟

لم ترد سندي، فهي لن تعترف بأنها كانت تسترق السمع ليلة أمس، فهزت كتفيها وابتسمت محاولة تضليله.

ـ سأقتل توبي. . . إنه لا يتعلم أبداً متى يتكلم ومع من أو كيف يمسك لسانه.

أحست سندي بالشفقة على توبي المنكود الحظ. لكن حفظاً لسلامتها، وسلامة الآخرين شعرت بأن عليها متابعة هذا الادعاء. فلانريكو كوستيلا القاسي، نفوذه ويجب أن تتذكر هذا. سألته:

ـ هل يعمل عندك؟

فابتسم ببرود:

ـ ألم تعرفي هذا منه؟ حسناً. . . لا داعي لئلا تعرفي. . . نعم يعمل في شركتي الرئيسية.

- ماذا يعمل؟
- ما يقال له.
- هو يعجبني. إنه لطيف جداً ووسيم الطلعة أيضاً.

ورد انريكو على الفور:

- ابتعدي عنه، إنه سريع التأثر، منذ أن ترك الدراسة وهو يقع في حب الفتيات فتاة تلو فتاة، فعندما يتعلق الأمر بالنساء يفقد شقيقي عقله.

فتح الباب ثم دخلت السيدة كوستيلا يسبقها عبق عطر جميل ملأ الغرفة فوراً. وقالت:

- ها أنت يا انريكو.

نظرت إلى سندي ببرود:

- صباح الخير آنسة موريتمور. . . هل ستغادرين المنزل الآن؟

تدخل انريكو قبل أن ترد سندي:

- على الآنسة موريتمور البقاء بضعة أيام لتلتقط بعض الصور.
- الصور؟
- صوراً للمنزل. . . ألم أقل لك الليلة الماضية؟ إنها مصورة صحفية من مجلة «كلوب» إحدى المجلات الرائدة في انكلترا. ولقد وعدت بأن أتركهم يلتقطون بعض الصور. لقد قلقوا من شراء أميركي لأحد أملاكهم الأثرية، ويريدون التأكد من أنني لا أدمّر كل شيء، ولكي أريح بالهم وافقت على أن يرسلوا مصوراً إلى هنا.

نظرت إليه والدته مشكّكة.

- لكنك لم تعلمني بذلك ليلة أمس.

فتحت سندي حقيبتها فأخرجت المحفظة وفتشت عن بطاقتها الصحفية ثم أعطتها للسيدة كوستيلا دون أن تتكلم. فنظرت إليها المرأة، ثم رفعت نظرها ببرود:

- لقد فهمت. . . أنت إذاً لا تعرفين ابني.
- لقد التقيته يوم أمس فقط. ولكنه سريع في تصرفه.
- أنا لا أفهم شباب اليوم.

قال انريكو:

- إن انتهيت من تناول الفطور، فربما ترغبين في البدء بعملك.

التقط لها الكاميرا عن الطاولة ثم قدّمها لها، وعيناه ملؤهما سخرية. . . فقالت، وهي تضع حمالة الكاميرا حول عنقها:

- سأحتاج إلى الأفلام.

فتح الباب ثم دخلت فتاة إلى الغرفة علمت من هي قبل أن تنطق السيدة كوستيلا باسمها:

- ميراي يا عزيزتي. . . تعالي وتناولي القهوة معي، اوه لقد بردت، انريكو هل لك أن تطلب لنا غيرها؟

هز رأسه، ثم قال لسندي:

- تعالي معي آنسة موريتمور. سأطلب من الحارس مرافقتك بجولة حول الأراضي.

كانت ميراي تحدق فيها بفضول فسارعت السيدة كوستيلا لتقول:

- الآنسة موريتمور مصورة من مجلة انكليزية يا عزيزتي.

فسألتها ميراي وهي تبتسم:

- اوه. . . هل أتيت لالتقاط بعض الصور لانريكو؟

فقال انريكو:

- لا . . . إنها ستصور المنزل فقط.

فتمتمت سندي:

- السيد كوستيلا يخجل من مواجهة الكاميرا.

تلقت منه نظرة واعدة بالانتقام فيما بعد. فضحكت ميراي.

ـ ليس من السهل التقاط صورة لك ألبس كذلك؟

ـ أنا لا استطيع الابتسام بشكل طبيعي. . . ففي اللحظة التي تُوجه إلي الكاميرا تتغير ملامح وجهي كلها.

فقالت سندي:

ـ أظن أن معظم الناس يشعرون بذلك.

فرد عليها بأدب:

ـ إذا كنت مستعدة آنسة موريتمور!

فتح لها الباب بنفاذ صبر فنظرت سندي إلى يد ميراي، التي لم تكن تضع خاتماً فيها، لقد كانت يداها الصغيرتان الشاحبتان خاليتين تماماً. . .

●●●

٥ ـ وسائل . . . أخرى

هبَّ الحارس واقفاً ما إن رأى مخدومه قادماً تلحقه سندي وهي تفكر بأن لا جدوى من هذه الجولة ما دام الحارس سيرافقها وما دام انريكو كوستيلا سيتلف أفلامها قبل أن تغادر هذا المنزل اللعين. في هذا الحين ندمت على ترك منزل شقيقتها.

في المستقبل ستترك لوالتر القيام بتحقيقاته. قال انريكو للحارس:

ـ روبن. . . رافق الآنسة مورتيمور في جولة حول المنزل والحديقة المدة التي تريدها. دعها تصور ما تشاء، ولكن لا تدعها تسألك أي سؤال، ومهما حدث، لا تضع يدك عليها، هل هذا مفهوم؟

بدا القلق على روبن وهو ينظر إلى رب عمله:

ـ أجل يا سيدي.

كرر انريكو بخشونة.

ـ لا تضع يدك عليها.

ابتلع روبن ريقه:

ـ لا يا سيدي.

ـ لا تنسى هذا، إذا كنت لا تريد أن توجه إليك تهمة الاعتداء منها والصرف من العمل مني.

فتح روبن فمه ليحتج، ولكن عندما نظر إلى عيني انريكو الباردتين اغلق فمه ثانية وبقي صامتا. قال لها انريكو:

www.rewity.com مرومانسية

ـ سأحضر لك الفيلم.

توجه انريكو إلى غرفة المكتبة. فنظر إليها روبن قائلاً:

ـ ما الأمر؟ ماذا. . . قلت عني؟

ـ لا شيء. . . .

فقطب حاجبيه بانزعاج قائلاً:

ـ هكذا أفضل. . . فلن أخسر وظيفتي من أجلك أو من أجل أي كان.

توقف عن الكلام عندما رأى انريكو عائداً ويداه مليئتان بعلب الأفلام الصفراء. أخذ ينقل نظره بينهما ثم قال:

ـ الأفضل أن ترتدي سترتك. . . روبن، أحضرها لها، أتسمح؟

وما إن ابتعد روبن حتى قالت بلهجة لاذعة:

ـ لقد تبشتم سيارتي على ما أعتقد.

لم ينكر انريكو أو يعتذر، فقالت وقد عاودها الغضب:

ـ لا تعتذر. . . إن وضعك يزداد سوءاً.

فسألها متوتراً:

ـ عم تلمحين الآن؟. . . ربما يجب أن لا أسألك لأن الرد لن يعجبني على الأرجح.

ـ أنت تعاني من جنون العظمة. وإذا بحثت في القاموس ستجد أن هذا يعني أوهام العظمة. . .

ـ أعلم ما تعني الكلمة. . . ماذا كان يقول لك روبن عندما عدت؟ هل كان يهددك؟

ولم تنوي أن تزيد متاعب روبن المسكين. . . لأنه لم يكن أكثر من سلاح تهدد به انريكو، فأجابته: «لا. . . لم يكن يهددني».

عاد روبن يحمل سترتها، فأخذها انريكو منه، ومدها لها، لتضع ذراعيها في كميها، فشعرت به قريباً منها حتى أحست بأنفاسه على

عنقها.

فكرت إن لم تحترس فقد تقع في حبه وهذا سيوقعها في ورطة كبيرة ليس فيها إلا الألم والمذلة لنفسها. سألها انريكو:

ـ هل أنت متأكدة أن بإمكانك السير على قدمك؟

نظرت سندي إلى قدمها الوارمة، داخل حِذائها المفتوح. أغرتها فكرة التظاهر بالعجز والكآبة، لتجعله يشعر بمسؤليته عن حمايتها فلا شك أن ذلك سيزيده إعجاباً بنفسه. ولكنها لم تفعل، ليس هذه المرة على الأقل. فهي تعلم جيداً كيف تتصرف عندما تحين لها الفرصة، فقالت:

ـ إنها لا تؤلمني كثيراً اليوم.

فابتسم انريكو، وتحولت تقاسيم وجهه إلى الدفء بشكل مدهش:

ـ قلت لك إنها ليست مكسورة. . . وهذا ما كنت تعرفينه لكنك حاولت خداعي. وعليك أن تستيقظي باكراً لتستطيعي خداعي.

ـ سأبقى صاحية طوال الليل إذا لزم الأمر.

ـ قد تفعلين ذلك.

وفتح لها الباب قائلاً:

ـ لا تسببي لروبن المتاعب فأنت تعرفين أن ذلك لا ينفعك فللبوابة التي تفتح آلياً حارس.

ـ أليس روبن بحارس لي أكثر منه دليلاً؟. . . البرد قارس اليوم. . .

دست الأفلام في جيب سترتها، فمد انريكو يده ليرفع لها ياقة السترة حتى التفت حول وجهها، وقال:

ـ اذهبي الآن.

ـ أنت جلف قاسي القلب.

فضحك وأجاب:

- ها قد بدأت تعرفينني جيداً.

لم يكن ما قاله مضحكاً لأنها فعلاً باتت تعرفه أكثر وهذا وإن أعجبها يخيفها لأن عليها تذكر الأسباب التي تجبرها على كرهه... ولديها من هذه الأسباب الكثير.

دست يديها في جيبيها وهي تنظر إلى جدران المنزل البيضاء. من بناه يا ترى؟ إنها لا تعرف شيئاً عن امبري هول، فربما كان من صنع مهندس شهير. قالت لروبن وهي ترنو إليه:

- هل ستكون دليلي؟

وبدا مرتبكاً:

- أنا؟ أنا لا أعرف شيئاً عن المكان. انه ضخم كمخزن حبوب.

- كم مضى عليك في العمل لدى السيد كوستيلا؟

- طلب مني ألا أجيب عن اسئلتك وهو يقصد ما يعنيه.

استدارا عند زاوية المنزل، فتوقفت سندي مذهولة، عندما رأت بحيرة أمامها، مياهها الرمادية الباردة تلمع كالمرآة المجمدة تحت سماء الشتاء. وعلى جانبيها تقع أشجار عارية تبدو متراقصة في المياه بفعل الريح التي تحنيها عند هبوبها.

وسألها روبن:

- ألن تلتقطي بعض الصور؟

- ولم لا؟

ووضعت فيلماً في كاميرتها وهو يراقبها، وبدأت تصور المنزل والبحيرة، والخراف تحت الأشجار، وأدارت الكاميرا نحو روبن، فأجفل ووضع يده الضخمة فوق العدسة، قائلاً:

- هاي... ماذا تفعلين؟

فقالت له ساخرة:

- ابتسم...

- لا أظن هذا مضحكاً.

- أنت لا تملك روحاً مرحة؟

- هذا صحيح.

تذكرت سندي كيف حملها على ظهره ووضع يده الثقيلة على قفاها، فقررت أن تعلمه كيف يبقي يديه لنفسه في المستقبل.

وأوقفتهما صيحة عالية، فاستدارا إلى طرف المنزل وإذا بتوبي يقبل نحوهما من الجهة الخلفية للمنزل. مرتدياً سترة جلدية مقفلة حتى ذقنه وقد ربطها على خصره بشدة، بدا عليه لون الصحة، وأثر الهواء البارد، سألها بعد أن انضم إليهما:

- هل تقومين بنزهة؟ هل لي بمرافقتك؟ إذ أشعر بالملل من الجلوس في الداخل.

- آه... هل يعلم السيد كوستيلا...

نظر إليه توبي باستغراب رافعاً حاجبيه بتعبير غريب شابه تعبير شقيقه عندما يكون غاضباً:

- ماذا؟

جرّ روبن قدميه دون أن يجيب، فنظرت سندي إلى توبي بانتباه، وقد وجدته مختلفاً هنا، وهو بعيد عن سيطرة شقيقه الطاغي، فقد كان مسترخياً وواثقاً من نفسه. أدار ظهره ببرود لروبن، وسألها:

- هل شاهدت بركة السباحة؟

- لا... هل هي بركة داخلية؟

- لقد بناها انريكو حديثاً، إنها في الجهة الخلفية من المنزل تقع بعيداً عن الطريق. والبناء الذي استخدمه بني في القرن التاسع عشر كيت

للورود. وقد غير من تركيبته ليناسب سائر أرجاء المنزل، بحيث أن أحداً لن يكتشف أنه غير أصلي.

سارا على مهل إلى خلف المنزل يتبعهما روبن، الذي كان يقف على مسافة غير بعيدة تخوله سماع ما يدور بينهما من أحاديث. أخذ توبي يرمقه بين الفينة والفينة، إذ لا شك في أنه سيعيد ذكر كل كلمة يسمعها أمام انريكو.

كانت بركة السباحة بعيدة عن المنزل، لها طراز خاص بها. وتوقف توبي عند الباب، ونظر إلى روبن:

ـ لا داعي إلى دخولك... يمكنك تدخين سيكارة بينما تشاهد الآنسة موريتمور البركة.

ـ لقد قال السيد كوستيلا أن لا أتركها وحدها.

ـ لن تكون وحدها أنا معها، وماذا تظن أنها ستفعل؟ أتسرق منشفة؟

فتح الباب ليدخل هو وسندي، ثم أغلق الباب في وجه روبن المتجهم:

ـ لقد سئمت من تعقب هؤلاء الرجال لي كالكلاب.

رن صدى الكلمات في المكان الفارغ. حدقت سندي في السقف الزجاجي المرتفع، ثم في صفحة الماء الزرقاء التي يتلاعب فوقها الضوء ويرقص. كانت الأرض حول البركة مرصوفة بالرخام الأبيض والأزرق، وفي المؤخرة بعض كراسي النوم وطاولة صغيرة بيضاء من الخشب سألها توبي:

ـ هل تشعرين برغبة في السباحة؟ ثمة ثياب هنا يستخدمها الضيوف الذين لا يحضرون معهم ثياب السباحة.

نظرت سندي إلى قدمها:

ـ كنت أحب ذلك لكنني لا استطيع.

ـ أنا آسف... لقد نسيت كاحلك... كيف هو الآن؟ أنت لم تخبريني كيف أصبت.

ـ لقد وقعت عن الشجرة.

فضحك ونظر إليها مشككاً.

ـ أنت تخدعينني...

ـ لا.

ـ ماذا كنت تفعلين فوق الشجرة؟ أكنتِ تنقذين قطة صغيرة؟ أم تلتقطين بعض الصمغ؟

بدأ يسير حول البركة فتبعته سندي ببطء، قائلة:

ـ كنت التقط صوراً للمنزل.

بلغا مكان المقاعد، فجلس ثم أشار إلى المقعد الملاصق له:

ـ اريحي قدمك.

جلست وهي تتنهد بارتياح.

ـ إنها تؤلمني لقد عاودني الألم مجدداً.

ـ وهل عملك خطر دائماً؟ كيف اخترت المهنة؟

ـ صدفةً... لقد زار مصور مشهور مدرستي ليتحدث إلينا عن عمله، وبدا لي الأمر مثيراً. فقررت أن أدرس فن التصوير. وكنت أبيع صوري للجرائد في لندن عندما كنت مصورة حرة، وأعجب رئيس التحرير بعملي، وعرض علي العمل كمبتدئة، وهكذا أصبحت مصورة صحفية.

ـ أعتقد أنك بارعة في التصوير حتى تعملي في جريدة مشهورة.

أتمنى لو أنني أجيد عمل شيء... أي شيء مهما كان! فأنا شخص عادي... بوجود أخ مثل انريكو... تصوري أن آخر فتاة عرفتها، وعدتني برؤيتها لتقابله. إنها قصة حياتي. فعاجلاً أم آجلاً، يتوجهن

جميعاً نحو انريكو.

ـ أنت تشعر بالأسى على نفسك.

ـ حاولي أن تنظري إلى الأمر من وجهة نظري... هل تحبين أخذ مكاني؟ هل تتصورين نفسك دائماً في الدرجة الثانية؟ لقد سئمت من هذا، راقبيه فقط! إنه يحصل على ما يريد دائماً من أي شخص كان.

ـ هل هذا صحيح؟

رغم برودها، أصبحت أكثر غضباً من نفسها بسبب الطريقة التي سمحت بها لانريكو بأن يعاملها بخشونة هذا الصباح. توبي على حق... تباً له. تتمنى لو تستطيع الإنكار.

ـ والدتي هي الوحيدة التي يطيعها وينفذ أوامرها وهي تستخدم خطة نقطة الماء فوق الصخر وهذا ما يكاد يفقده صوابه. لكنها دائماً تخمد ثورته في النهاية، لأنه يستسلم لإسكاتها ليس إلا وإن تزوج من ميراي فلارضائها فحسب.

لتسعت عيناها وهي تستمع؟ أنسيَ توبي إلى من يتكلم؟ أم أنه يسرب عمداً أسرار العائلة. كي يزعج شقيقه؟

ـ أمها كانت زميلة وصديقة أمي في المدرسة. كان لأمي حلم وحيد هو زواج ميراي من انريكو وقد بذلت جهداً لإقناعه منذ سنوات وها هي قد غسلت دماغ ميراي حتى اقتنعت بأنها تحبه.

لم تستطع سندي تصديق هذا، فسألته بفضول:

ـ وهل هي بحاجة لغسل دماغ؟

أدارت سندي وجهها لتخفي ابتسامة، فتوبي ليس ناجحاً بما فيه الكفاية بعد. قالت بصوت منخفض:

ـ لقد قابلتها هذا الصباح.

ـ إنها ليست قوية البنية.

صدقت سندي هذا... فالفتاة جميلة لكنها هشة حتى يكاد يعتقد الإنسان أن نفخة ريح يمكن أن ترميها، وهي إلى ذلك لا تبدو مناسبة لانريكو القاسي وواقعه، ولكن لعل هذا ما جذبه إليها؟ فالنقيض ينجذب دائماً لنقيضه، فربما انجذب لجمال ميراي الهش لأنها بكل بساطة تبعد مليون سنة ضوئية عن طبيعته، والشيء نفسه قد ينطبق على شعور ميراي تجاهه، فهو رجل قوي، وفتاة مثلها قد تجد هذا لا يقاوم.

قال توبي، بقسوة نبّهت سندي إلى ما يقول:

ـ لن يُسعدها.

فهمت فجأة مشاعره، مما جعلها تشعر بالأسف عليه، صحيح أنه من الصعب أن يشعر المرء دائماً بأنه في المرتبة الثانية لكن هذا الأمر ليس مأساوياً كما يُظهره توبي. لكن أن يحب الأخ خطيبة أخيه فهنا تقع المشكلة، ونظرت إليه بعطف... وهو يتابع قوله:

ـ هو لا يحبها... لن يتزوجها لأنها تناسبه بل ليسكت أمه. وهذا يعني لها الشقاء والتعاسة عندما تكتشف الحقيقة. ميراي هي من النوع الذي يحتاج إلى حبّ ورعاية الرجل وهذا ما لن يؤمنهما لها انريكو أبداً. سيعطيها المال وكل ما تحتاج إليه. لكنه لن يعطيها ما تحتاج إليه حقاً... إنها ليست المرأة التي خُلقت من أجله.

ولاحظت سندي نظراته الجانبية إليها وكأنّه يترقّب ردة فعلها لما يقوله، فارتابت بأمره.

ـ كما أنَّ انريكو لن يسعد معها أيضاً وهذا لا يزعجني كثيراً ومن الواضح أن هذا لا يزعجه أيضاً وإلا لما كان سيتزوج فتاة يعلم يقيناً أنه لا يحبها. لكن لماذا أضيع وقتي بالقلق بشأن الأمر؟

ـ لِمَ تكشف لي هذه الأسرار وأنت تعلم أنني صحفية. لا تدَع

النسيان، لأنني لن أصدقك أنك تقدم لي قصة وقد يشيعها مطلق صحفي يهوى الإشاعات لأنها من الفضائح التي يحبها الناس.

ـ أنت لن تشيعيها... الأفضل أن نعود إلى روبن.

ـ أخاله قد أسرع إلى المنزل ليقول لشقيقك انك معي.

فضحك:

ـ لن يدهشني ذلك. ولن يعجبه الأمر، اليس كذلك؟

حارت في أمر لهجة الانتصار البادية في حديثه فقالت:

ـ بالنسبة لشخص كان يشكو من سيطرة شقيقه عليه فأنت تأخذ الأمر دون اكتراث.

ـ لم يكن لدي شيء ضده قبل الآن.

ـ الآن، ثمة شيء؟

عمَّ يتحدث بحق الله؟ ولماذا يضحك في وجهها على هذا النحو؟

ـ أنت... أنت تعلمين جيداً أنه سيغضب إذا اعتقد بأنك تعبثين معي؟

فوقفت سندي على الفور، ووقف بدوره ضاحكاً. عندها راحت تفكر بسرعة، بنواياه. فقال لها دون أي أثر للذنب:

ـ لقد استمعت إليه من خلف الباب عندما أرسلني في الصباح لأرى إذا كانت أمي قد استفاقت. لقد كان حديثاً مثيراً للاهتمام، تمنيت لو سمعت منه المزيد، لأن روبن قطع عليَّ ما أفعل بوصوله حيث تظاهرت بأنني اربط حذائي، ثم انصرفت. لقد ارتبت بأن شيئاً ما حصل بينك وبين انريكو. فمعظم الفتيات لا يتكلمن معه كما تتكلمين، كلهن يجثين على ركبهن أمامه ويوافقن على كل ما يقوله. وهذا أمر مقرف. لكنك وقفت في وجهه، غير خائفة بل غاضبة ولم تخشي من إظهار غضبك أمامه. لقد تساءلت عمّا ستقولين له عندما أخرج، وعندما بدأ الصراخ لأنه ظنك

تعبثين معي، علمت أنني أقتفي الأثر الصحيح. لقد كان واضحاً حتى من خلف الباب أنك أثرت عليه.

فقالت له ببطء:

ـ يبدو أنك قد فقدت عقلك.

أدركت أن وجهها قد احمر، وأن توبي قد لاحظه مسروراً أما هي فقد رأت أن ثقته الجديدة بنفسه، والطريقة التي تكلم بها مع روبن، نابعة مما استرق إليه السمع من حديثها مع شقيقه. فللمرة الأولى، يحس توبي بأنَّ لديه سلاحاً يستطيع استخدامه ضد انريكو. وليس هناك من معركة أشد ضراوة وفتكاً من معركة بين أفراد عائلة واحدة، والأحمق وحده من يتورط فيها وسندي ليست بالحمقاء.

قال توبي وقد وَثِق بنفسه:

ـ أنت لا تخدعينني... انظري إلى الأمر من وجهة نظري يا سندي، نحن في المعسكر نفسه. ألسنا نبغي الشيء نفسه؟

قالت بغضب:

ـ لم ألاحظ هذا. ماذا تقصد؟

ضحك:

ـ أنت تعرفين جيداً ما أقصد!

طبعاً عرفت قصده فتلميحه أبلغ من أي كلام فتوبي يحسبها على علاقة غرامية مع شقيقه وبما أنه يريد إفشال زواج أخيه فقد سُرَّ لوجود حليف له.

ـ أنت واهم في اعتقادك لأنني لا أعبأ بشقيقك. لا تجرني إلى أي شيء بينكما.

ـ أنا لست غبياً كما يظنني انريكو، وحتى قبل أن استرق السمع إليكما تساءلت عن علاقتكما. فآخر مصور صوّر انريكو تحطمت كاميرته، أضيفي إلى ذلك أنه لا يسمح للصحفيين الاقتراب منه أبداً ومع

ذلك فها أنت، هادئة رابطة الجأش.

التقط أنفاسه قليلاً ثم أردف:

ـ أنا لا أنسى مظهره حين وصلنا. بدا وكأن صاعقة ضربته. يا إلهي لا ريب أنه قد صُدِم صدمة قوية عندما رآنا! ورأى ميراي خاصة.

عندما خرجا من مبنى البركة، لم يجدا لروبن أثراً. وهذا لم يدهش سندي لكنها لا تنكر أن قلبها قد ازدادت خفقاته لأنها لا تريد مواجهة أخرى مع انريكو فالوضع كله غدا معقدا حتى باتت لا تصدق متى السبيل إلى الخروج منه فليس أصعب من أن يتورط المرء بحياة الناس الخاصة المعقدة، فقد يقومون، دون توقع، بأعمال قد تسبب المشاكل. اشتاقت في هذه اللحظة إلى منزل شقيقتها الصاخب. قال لها توبي:

ـ ألا تفهمين يا سندي؟ لو اتّحدنا. . .

فقاطعته بنفاذ صبر:

ـ لا أريد أن أعرف شيئاً. فلا شأن لي بكل ما تقول، اعلم أنني سأغادر المنزل ما إن يُؤذن لي بالرحيل.

ضحك توبي وقد بدت عليه السعادة:

ـ لماذا يمنعك إن لم يكن بينكما علاقة ما؟

ابتعدت سندي عنه بأسرع ما أمكنتها منه قدمها المعطوبة، رافضة الردّ فماذا تستطيع أن تقول؟ أتخبره القصة الكاملة عن ادوارد كاوندي؟ أم تخبره أنها محجوزة إلى أن يرفع الحظر عن اذاعة أنباء المحادثات؟ حسناً، تستطيع طبعاً قول الحقيقة، ولكنها تعلم أنه لن يصدقها، لأن هذه المعلومات لن تغطي ما استرق إليه السمع. ولديها شعور بأن انريكو لم يذكر لهم شيئاً عن ادوارد كاوندي، ولم يردها أن تتحدث إلى توبي كي لا تكشف له الأمر، ولكن توبي اعتقد أن منعه لها من التعاطي معه مرده الغيرة، ولعل هذا ما جعله يفخر بنفسه لأنه اعتقد أن شقيقه يغار منه.

قبل أن تصل إلى الباب الأمامي للمنزل، أقبل انريكو غاضباً شريراً وقد بدا ذلك واضحاً من خلال طريقة سيره وتجهم وجهه المُسوّد.

فقالت لتوبي صارخة:

ـ الآن انظر إلى ما فعلت!

عليها أن تدفعه إلى المقدمة، ليتلقى أولى ثورات غضب انريكو تبعاً للقاعدة المعروفة عن انقاذ النساء والأطفال أولاً. وصاح انريكو بشقيقه:

ـ ادخل إلى المنزل. . . سأتحدث إليك لاحقاً.

لم يطعه توبي، بل تقدم من سندي ليلفَّ كتفيها بذراعه وليسأله بعدوانية:

ـ لماذا تصرخ هكذا؟ لقد كنت أُري سندي حوض السباحة الجديد. ثمة ما يمنعني عن ذلك؟

ـ روبن كان يرافقها في جولتها وفقاً لأوامري التي ليس من شأنك إلغائها. وإذا تدخلت في الأمر ثانية فسوف تندم أيها الصبي الأبله، هل نسيت أنها صحفية؟ وأي شيء تقوله لها سينشر في صفحات الجريدة؟ ولا تظن أبداً أنها ستتردد باستخدام المعلومات التي أعطيتها إياها على طبق من فضة. كن على يقين من أنها ستنقض وعدها ما إن تخرج.

ـ أنت لا تريد أن تمنعني عنها للسبب الذي ذكرت! إنما لأنك تهواها.

تصلب وجه انريكو بقناع بربري غاضب، والتمعت عيناه شراً حين رد توبي:

ـ عليك الاختيار بين هاتين المرأتين. فإن كنت ستتزوج ميراي فاقنع بها واترك سندي لي.

تحرك انريكو بسرعة مفاجئة حتى تطاير شعره وهو يلكم وجه شقيقه

المبتسم. الذي وقع أرضاً فوق بركة وحل ثلجية بينما ذراعاه منفردتان في سبيل انقاذ نفسه. فصرخت سندي:

ـ أيها السافل!

ركعت على ركبتها قرب توبي، الذي أخذ الدم ينزف من زاوية فمه، ودفعها عنه عندما حاولت مساعدته، ووقف وحده وهو يتحسس فكه بيده. ثم نظر دهشاً إلى يده التي ملأتها الدماء فسألته سندي مضطربة:

ـ هل أنت بخير؟

نظر إليها توبي مترنحاً، فالتفتت إلى انريكو وصرخت به:

ـ ما كان يجب أن تفعل هذا!

قال توبي مهتزاً وهو يقف:

ـ لقد كدت تحطم فكي.

رد عليه انريكو بصوت يهزه الغضب:

ـ لا تكلمني هكذا أبداً! هل تسمعني؟ خاصة أمام الغرباء! وإلا سأكسر فكك فعلاً في المرة القادمة لأعلمك طريقة مكالمتي. ادخل إلى المنزل وابتعد عن طريقها.

لما دخل توبي استدارت سندي لانريكو قائلة:

ـ هل كان عليك إذلاله؟ فأنت تعلم أنك أقوى منه... دون أن تسعى إلى إثبات قوتك. أنت رجل خسيس! لم أر يوماً شخصاً أحقر منك!

استمع إليها انريكو، ووجهه جامد كالثلج.

وعندما توقفت عن الكلام نظر إليها للحظات طويلة دبّت الخوف في كل أوصالها:

ـ أنت السبب. كل ما حدث كنت فيه السبب. لقد طلبت منك

الابتعاد عن شقيقي الأحمق الذي لا يعي خطر التكلم بحرية مع امرأة مثلك. وإذا سمحت له بمغازلتك كما سمحت لي، فسيكون مستعداً ليصدق أنك بحلاوة العسل، فأنا أعرف توبي جيداً...

قاطعته سندي:

ـ هل تعرفه حقاً؟ أشك في هذا. إنه يكرهك، أتعرف هذا؟

هز انريكو كتفيه:

ـ لن أتباحث معك شؤون أخي. فإن حدّثك عني فالخير لك نسيان ما أخبرك إياه، وإياك أن تنشري أي شيء... أي شيء من الحديث... أو...

ـ ماذا؟ هل ستحطم فكي أنا أيضاً؟

قاطعته وهي ترى في تلك اللحظة... أنه قد يفعل لأن عينيه اشتد احمرار غضبهما، لكن لم تلبث إلا لحظة حتى ابتسم معيداً إليها طمأنينتها ورشدها:

ـ علي أن استخدم وسائل أخرى معك، وأنا على يقين من أنها ستجدي نفعاً إذ ستعلمك السبيل إلى إمساك لسانك عن الزلل.

وأحست سندي بذعر شديد دفعها إلى الاستدارة والإسراع إلى المنزل دون أن تنبث بكلمة.

●●●

٦ ـ أمواج من نيران

ما إن دخلت سندي إلى المنزل حتى طالعها مشهد صغير عند أسفل السلم. كان توبي يقف جامداً، وميراي تلمس بإصبعها النحيلة شفته الوارمة برقة. ووجهها يفصح تعبيرات أبلغ من الكلام فقد كان على كل خد قرص أحمر، وعيناها الزرقاوان الغائرتان تبدو عليهما الصدمة والغضب.

ثم، وكأنما انبعثت فيهما الحياة لسماع وقع أقدام سندي فاستدار توبي صاعداً السلم بسرعة في حين نظرت ميراي إلى سندي بعدائية، ويداها تستقران على خصرها:

ـ لقد انشقت شفة توبي! أتسرك رؤية الرجال يتصارعون من أجلك؟

تفرست سندي في وجهها وهي مقطبة:

ـ لماذا حسبتهما يتصارعان من أجلي؟

ـ لقد أخبرني توبي! لقد قال إنك... إنك وانريكو...

إنها تجد صعوبة في لفظ الكلمات فكان أن استعاضت عنها بالإشارة بيديها بجنون:

ـ أنت تعرفين ما قاله لي، فهل هو صحيح؟

دخل روبن من باب في نهاية الردهة، فنظرت إليه ميراي بسرعة، ثم دخلت غرفة خلفها وهي تتمتم:

ـ ادخلي... أريد التحدث إليك.

تبعتها سندي ببطء ثم أغلقت الباب أمام نظرات روبن الجافة لتجد نفسها للمرة الأولى في غرفة جلوس مربّعة. مكسوّة جدرانها بالحرير الزهري، مغطاة أرضها بسجادة عجمية رائعة.

وقفت ميراي قرب شجرة ميلاد لم تكتمل زينتها في الزاوية قرب النافذة. ثم راحت ترقب سندي وهي تلمس نجمة فضية في الشجرة. سألتها:

ـ هل صحيح ما قاله عنكما أنت وانريكو؟

ترددت سندي في الإجابة:

ـ لا تصغي إلى أقوال توبي فهو يكره شقيقه ويغار منه.

اشتدّ احمرار وجه ميراي.

ـ لا تشرحي مشاعر توبي الذي أعرفه منذ نعومة أظافري.

كان صوتها يرتفع غضباً ونظراتها تشتعل كرهاً لها وهذا ليس بمستهجن بل المستهجن عداؤها من أجل انريكو... أم أنها لا تعبأ إلا بتوبي؟ فقالت لها سندي بجفاء:

ـ هذا يعني أنك تعرفين انريكو المدة نفسها فلماذا تحتاجين إلى أن أشرح مشاعره؟

لم تجبها ميراي، بل عضت على شفتها ثم قالت:

ـ قال توبي ان انريكو لكمه لأنكِ كنت تعبثين معه... هل هذا صحيح؟ أنا اسألك سؤالاً بسيطاً، فلماذا لا تعطيني إجابة بسيطة؟

ـ أنا لست في محاكمة. وليس علي أن أجيب على أي سؤال.

ـ ألا يحق لي أن اسأل؟

ـ لا تسأليني أنا.

ـ لقد طلبني انريكو للزواج منه!

ـ إذاً، اطرحي عليه اسئلتك.

تحطمت النجمة الفضية بين اصابع ميراي فرمتها بغضب ونفاذ صبر:

ـ لا استطيع! أنا أخاف أن...

غرقت في الأريكة القريبة منها محتمية. فسألتها سندي بفضول مرير:

ـ أتخافين منه... أم مما سيقوله لك؟

انحنت لتلتقط النجمة، ثم أعادت تمليسها، ووضعتها فوق الشجرة لكن هذه النجمة ما عادت إلى سابق عهدها عندما وضعتها على الشجرة.

ـ هل أنتِ من زيَّن الشجرة؟ أم اشتريت مزينة.

فأجابتها ميراي بصوت مهذب رفيع:

ـ لقد اشتراها روبن من بلدة قريبة إذ لا يحلو الميلاد دون شجرة.

ـ هل تحبين انريكو؟

ساد الصمت قليلاً ثم قالت ميراي:

ـ لست أدري. لقد رأيته كثيراً خلال الصيف حتى اعتقدت أنني أحبه، ولكنه كان بعيداً عني لمدة أسابيع طويلة الآن... و... الحب ليس كلون الجسم يزول ما إن تبتعد عنه الشمس أصحيح ما أقول؟

ـ هل تسألينني... أم تخبريني؟

ترددت سندي في الجلوس قربها، ولكن كاحلها الذي بدأ يؤلمها جعلها تجلس على الأرض وهي ترفع ركبتيها لتحيطهما بذراعيها واضعة ذقنها فوق الجينز، وهي تُردف قائلة:

ـ أنا لا أعرف شيئاً عن الحب على كل الأحوال فعلاقاتي كانت تتلاشى بسرعة، وليس كلون البشرة بل كطفرة الحصبة... في لحظة احمّر وفي الثانية يختفي المرض.

ـ كم عمرك؟

أجابتها سندي بصراحة فقالت:

ـ أنت أكبر مني بأربع سنوات... كم مرة اعتقدت نفسك أنك تحبين؟

ـ في البداية؟ عندما كنت في السابعة عشرة من عمري كنت أحب تلميذاً من تلاميذ مدرستي كل اسبوعين وقد استمر بي ذلك إلى أن بلغت التاسعة عشرة حيث التقيت شاباً أكبر مني حسبت أنني أحبه لكن بعد ثلاثة أشهر عدت إلى سابق عهدي أتنقل من شاب إلى آخر حتى وصل بي الأمر أخيراً إلى عدم الوقوع بحب أحد.

فضحكت ميراي، ثم تنهدت:

ـ أنا لم أعرف الكثير من الرجال، فقد كنت في مدرسة للبنات، في قسم داخلي، يمنع عنا رؤية الشباب، ثم انتقلت إلى مدرسة في سويسرا لأتعلم الألمانية وأحسّن لغتي الفرنسية. فالتقيت بضعة شبان سويسريين، لم يسمح لي بالخروج معهم.

قاطعتها سندي:

ـ لكنك عرفتِ توبي.

فضحكت ميراي:

ـ اوه توبي! حسناً هو كأخي تربينا معاً، وأنا مولعة به جداً، ولكن لا أحد ينظر إليه بشكل جدي.

أحست سندي بالشفقة على توبي ثانية، بعد أن أدركت ما مر به خلال السنوات الماضية... فمن يستطيع لومه لو أنه شعر بالاضطهاد من وقت لآخر. فلا أحد يحب أن يعامل كنكرة، وهذه المعاملة قد تحوّل أكثر الرجال مسالمة إلى قاتل.

تابعت ميراي كلامها:

ـ ثم قابلت انريكو ثانية في الصيف الماضي وكان قد مضى زمن منذ رأيته آخر مرة. في ذاك الوقت قال إنني قد تغيرت كثيراً فراح يواعدني وهذا ما بعث السعادة إلى قلوب الجميع خاصة والدتي التي حسبت نفسها

قد وصلت إلى القمر. أما أنا فظننت نفسي قد وقعت في حبه لأنه كان يخطف أنفاسي كلما رأيته.

عرفت سندي هذا الشعور، فقد خطف أنفاسها أكثر من مرة خلال اليومين المنصرمين، ولكنها لن تقول لنفسها إنه الحب. لأن ذلك لا يتعدّى الانجذاب إلى رجل قوي الشخصية.

ـ ثم سافر إلى أوروبا. ووعدني بالرجوع لكنه لم يرجع... كان من وقت لآخر يحضر إلى نيويورك أو إلى «وست كوست» لكنه لم يسافر قط إلى بوسطن بسبب العمل كما كان يقول أما الآن فأنا أراه مختلفاً. خلت نفسي عندما سأراه ثانية سأشعر بذاك الشعور نفسه لكن... لست أدري ما إذا كنت أنا أم هو من تغير. هل هو حبيبك؟

فأجفلت سندي، فاحمر وجهها، واشتدت قبضة يديها على ركبتيها وهي تجيب:

ـ إن قصدت هل أنا على علاقة غرامية فالردُّ «لا».

لم تسألها ميراي السؤال الذي قد تحار في الاجابة عنه فلو سألتها ما إذا كانت قد وقعت في حب انريكو لكان ردها مختلفاً. بدا على ميراي الدهشة:

ـ اوه... أنا آسفة... هذا سؤال لا يغتفر. ما كان عليّ الاصغاء إلى توبي الذي فهم الوضع خطأً. لكنني علمتُ تغيره إلى وقوعه في حبّ فتاة أخرى.

مسحت خصلة شعر من شعرها الحريري الأشقر إلى الخلف بيد مرتجفة:

ـ أنا لا أحب كل هذا... أكره المشاحنات والنقاش، لذا لم أتكلم مع انريكو بشأن المستقبل إذ لن احتمل غضبه، فهو عندما يغضب يصبح مرعباً.

ـ أعلم هذا.

أجفلتا معاً، عندما فتح الباب، ودخلت السيدة كوستيلا وقد بدا عليها الغضب:

ـ ماذا حدث لوجه توبي؟ لقد قال انه اصطدم بالباب لكنني لم أصدقه.

لم تجبها أي منهما، وبعد فترة صمت تابعت:

ـ حسناً... الغداء جاهز تقريباً. هل ستبقين معنا آنسة موريتمور؟ أم أنك ذاهبة؟

أتاهن صوت انريكو من الخلف:

ـ إنها باقية.

فأجفلت السيدة كوستيلا فاستدارت إليه:

ـ انريكو! توبي لن ينزل لتناول الغداء لأنه كما يقول قد اصطدم بالباب فتأذى فمه.

ـ لعل ذلك سيعلمه الانتباه إلى خطواته.

فوقفت سندي متجهة إلى الباب وهي تقول:

ـ أظن أنه من الأفضل أن اغتسل قبل الغداء.

كانت تجفف وجهها في الحمام عندما سمعت حركة في غرفتها ففتحت الباب لتجد انريكو، فاحمر وجهها من الغضب وسألته:

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ أردت التحدث إليك على انفراد قبل الغداء.

ـ متى استطيع الرحيل؟ لا بد من أن كاوندي قد وصل إلى بلاده الآن؟

ـ لكنه لم يعلن عن الاتفاق بعد.

ـ وإن لم يفعل إلا بعد بضعة أيام فهل ستحتجزني كل تلك المدة...

www.elromansia.com

أريد الذهاب إلى المنزل لقضاء الميلاد. دعني أرحل الليلة.

ـ أخاف أن تشيعي الخبر لذا ستبقين في منزلي حتى آذن لك.

فردت عليه بغضب:

ـ كلما طالت مدة بقائي هنا كلما زادت المشاكل التي سأسببها لك!

تحرك نحوها بسرعة قبل أن تستطع الهرب منه ليمسك بكتفيها ويهزها بعنف:

ـ لقد أحدثت ما يكفي من الضرر! وإن كنت حكيمة فاقلعي عن ذلك ما دمتِ تريدين السّلامة... أنت تغضبينني كثيراً، فاحذري.

رفعت سندي رأسها متحدية، وعيناها تلمعان:

ـ أنت لا تخيفني سيد كوستيلا. وإن سئمت وجودي فالدواء في يدك... اتركني اذهب.

قست نظراته ثم اسودت بشدة أرجفت أوصالها:

ـ لست أنوي أن أتركك تذهبين.

كان لكلماته معنى مزدوج وهو يجذبها نحوه ببطء ضاغطاً على كتفيها ضغطاً شديداً حتى تألمت، تسمرت قدماها في الأرض رافضة التحرك. لكن جسدها المتصلب كان ينحني باتجاهه ونبضاتها تخفق بقوة للمسته.

ـ أنا مصرة..

فضحك بخشونة وقال ساخراً:

ـ مصرّة؟

فقد الكلام معناه تحت حرارة عناقه الذي لم يرحمها أو يرحم أعصابها المزغردة فرحاً أرادت من كل قلبها أن تنكره. لكن يديه انزلقتا فوق ذراعيها فاتّحد جسداهما حتى غدوا جسداً واحداً. حاولت أن تتذكر كرهها له واشمئزازها منه لأنه يحاول مغازلتها في وقت ينوي فيه الزواج

بكل برود من فتاة أخرى. لكن مشاعرها هزمتها ولفتها في دوامة لا قرار لها فقد نسيت كل شيء إلا وجوده الذي طغى على أحاسيسها كلها. مضى وقت طويل قبل أن يبتعد عنها تاركاً إياها متخبطة بين أمواج من نيران فاقدة السيطرة على انفعالاتها إلى حدٍّ كبير أرعبها.

أمرها قائلاً:

ـ ستفعلين ما أقوله لك.

كان وقع كلامه البارد كرذاذ الماء المثلج على وجهها الساخن. فتنفست بحدة وهي تنظر إليه بغضب وألم مرير. ألم يعن له هذا العناق الطويل شيئاً له؟ هل يحاول استخدام مشاعرها ضدها؟ همست من بين أسنانها:

ـ أيها السافل! لا تصدر أوامرك لي! لن أبقى هنا...

قال لها ساخراً:

ـ لن تبقي؟

ـ أمثالك من الرجال يعثون في نفسي الغثيان! أنت تعتقد أن كل ما عليك فعله هو إشارة من يدك ليخرّ الجميع لك طائعين. ربما لم يقل أحد في وجهك «لا» من قبل... ولكنني أقولها لك الآن. سأغادر هذا المكان، ولن يجبرني شيء على البقاء!

رفع حاجبيه بسخرية:

ـ لا شيء؟

انتزعت نفسها من قبضته ثم صفعته صفعة على وجهه كانت كدوي رصاصة تخرج من فوّهة مسدس، تركت بصماتها بوضوح على خده. تصلب جسد انريكو ثم راح يتنشق الهواء بصعوبة وقد غدا لونه شاحباً من فرط الغضب. عندها تراجعت وهي مذعورة من أن يرد لها الضربة، لكنه عوضاً عن ذلك أمسك شعرها بقوة كادت تطلق الصرخة من فمها ثم ردّ

رأسها إلى الخلف بيد بينما التفت اليد الأخرى حولها لتشل حركتها، وليضمها إليه بقوة وضراوة كانت أقسى عليها من الصفعة لأنه كان يقصد إيلامها من هذا العناق الذي لم يشعر أي منهما بلذة منه. ثم تركها وهي تحس بدوار وقال لها بخشونة:

ـ لا تضربيني ثانية! قد أردّ لك الضربة في المرة القادمة.

ـ ذلك أفضل! أنت حيوان!

ـ ألسنا جميعاً حيوانات... والآن ماذا قال لك توبي هذا الصباح؟ لو نشرت شيئاً منه...

ـ اخرج من هنا ودعني وشأني... فلست بحاجة لإعادة تحذيرك. هل هي غلطتي بأن يفضي إلي شقيقك بالأسرار، فأنا لم أبحث عنه لانتزع منه شيئاً، وأنت تعرف هذا، إنه هو من خرج ليفتش عني إذ لدي وشقيقك شيء مشترك.

ـ ما هو هذا الشيء المشترك بينكما؟

نظرت إلى عينيه مباشرة، وببرود:

ـ كلانا يكره النظر إليك... اخرج من هنا. فوالدتك لا بد من أنها تتساءل الآن عن سبب تأخرك، أليس الأفضل أن تذهب لتناول الغداء؟

ـ إذا كنت مستعدة...

ـ أنا لم أضع زينتي بعد. لن اتأخر.

فتردد انريكو، ثم قال:

ـ لا تتأخري... ولا تدعيني أشاهدك مع توبي ثانية.

ابتسمت سندي لصورتها في المرآة وهي تضع المكياج على وجهها... لماذا الحياة صعبة؟ من يا ترى وضع قوانين اللعبة، ولماذا وضع كل هذا القدر من العقوبات على الاخطاء؟ نظرت إلى ساعتها ثم تنهدت. وقررت النزول قبل أن يصعد ليفتش عنها. فإذا كانت مضطرة

لتكون بصحبته فخير لها أن تلقاه بين الناس لأن ذلك آمن لها.

كانت في منتصف السلم عندما لاحظت الباب الأمامي مفتوحاً وهواء الشتاء البارد يهب إلى الداخل. وقبل أن تصل إلى الأسفل سمعت صوت توبي يعلو بغضب في الخارج:

ـ سأقوم بنزهة في السيارة لأتنشق بعض الهواء النظيف، بعد أن اختنقت في هذا المنزل!

سمعت صوت روبن يقول:

ـ هل يعلم السيد كوستيلا؟

وكانت ردة فعل توبي كردة فعل الزيت المغلي عندما يصل إليه رذاذ الماء.

ـ ماذا تعني بكلامك هذا بحق الجحيم؟ ولماذا تكلمني بهذه الطريقة؟ ومن تحسب نفسك؟

ـ أنا أنفذ الأوامر فقط يا سيدي. لقد أصدر شقيقك الأوامر بعدم خروج أي كان دون إذنه.

ـ لعنة الجحيم عليه... وعليك أيضاً!

اقترب صوت توبي لأنه كان يدخل المنزل، فسارعت سندي للاختفاء وراء أحد الأبواب، غير راغبة في التورط بهذا الجدال.

ـ هاي... أنت!

ظنت سندي أن توبي شاهدها وراء الباب،، فأجفلت ثم أدركت أنه ما زال يكلم روبن.

ـ تعال معي... انت تريد أن تسمع بنفسك شقيقي وهو يأذن لي بالخروج. سوف تأتي معي وستسمعني أقول له رأيي بإهانتك اللعينة لي أيضاً!

لم يجبه روبن بل سمعت سندي وقع خطواته الثقيلة وهو يتبع توبي،

فتراجعت أكثر خلف الباب، وهي تتمنى أن لا يلتفت أحدهما فيراها، فجأة لمعت في ذهنها فكرة. فما إن اختفى توبي وروبن في غرفة الطعام حتى خرجت من خلف الباب ونظرت إلى الخارج فإذ بها ترى سيارة سوداء لامعة متوقفة خارجاً.

وأعادت سندي النظر إلى الردهة فلما لم تر أحداً أسرعت إلى السيارة لتجلس في المقعد الخلفي قبل أن يراها أحد. إنها مخاطرة. فقد يرفض انريكو السماح لشقيقه بالخروج لكنها مستعدة للمخاطرة.

استلقت بين المقاعد، ثم أحنت رأسها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً كانت نوافذ السيارة مرفوعة، والزجاج الملون المقاوم للرصاص لا يسمح برؤية الأشياء بسهولة.

خفق قلبها بقوة وهي تنتظر وتنتظر حتى ظنته قد طال إلى الأبد. عندما سمعت وقع أقدام مقبلة خفق قلبها بقوة أكبر ونضح جسدها عرقاً خشية أن يكشفها القادم. سمعت فجأة أصواتاً ترتفع من بينها صوت توبي المزمجر:

ـ افتح هذه الأبواب حالاً.

سمعت وقع قدميه يقترب فوق الأرض المرصوفة بالحصى فانخفضت أكثر. ثم سمعت باب السيارة يفتح. فراحت تدعو خوفاً من أن يقبل روبن ليفتش السيارة لكنها عوضاً عن ذلك سمعت صوت المحرك وأحست بانطلاق السيارة المسرعة ولم تجرؤ على التحرك قبل أن تتأكد من خروجها خارج الأبواب. فحتى الآن يمكن أن يمنعها من الخروج، فلو شك انريكو في طول غيابها وصعد ليرى سبب تأخرها عن النزول فسيجد غرفتها فارغة وسيسرع ليأمر روبن بأن لا يفتح الأبواب.

أحست بالسيارة تبطىء سيرها فتسارعت نبضات قلبها بعنف، هل اكتشفوا اختفاءها؟ أما زالت الأبواب مغلقة؟

تقدمت السيارة دون أن تقف فأحست بتوبي يتحرك في مقعده ثم أحست بالسيارة تستدير يميناً ثم أسرعت ثانية إلى الأمام، عندها علمت انهما قد أصبحا خارج الأسوار على الطريق العام. سمعت سيارة أخرى تمر بهما تتجه في الاتجاه المعاكس، وبدا أن توبي يقود السيارة بسرعة ثمانين ميلاً في الساعة. رفعت سندي رأسها ببطء، ونظرت بحذر خارج الزجاج الملون لتتأكد من أنها ليست مخطئة فشاهدت منزلاً يمر بسرعة أمامها، ونوافذه الأمامية تلمع باضواء الميلاد.

شاهدها توبي فجأة فصاح:

ـ ماذا تفعلين...

انزلقت يده عن المقود، ففقد السيطرة على السيارة التي انزلقت فوق الطريق الجليدية وأخذت الإطارات تصدر أصواتاً. وأمسك توبي بالمقود بكلتا يديه وهو يصر على أسنانه... وللحظات كان مضطراً للتركيز على القيادة وجلست سندي في المقعد الخلفي. ومدت ساقيها ثم راحت تفركهما لتعيد إليهما الدورة الدموية.

سألها توبي بعد أن سيطر على السيارة:

ـ من أين أتيت؟ وماذا تفعلين في سيارتي؟

ـ ابق عينيك على الطريق... فهي متجمدة ولا أريد أن يحدث لنا حادثاً رهيباً.

ـ سائقة من المقعد الخلفي...

أعاد النظر إلى الطريق، ثم نظر في المرآة أمامه ليرى صورتها.

ـ ماذا حدث؟ متى صعدت في السيارة؟

ـ عندما كنت أنت وروبن تتحدثان إلى شقيقك.

ـ انريكو لا يعلم...

ـ وهل كنت أخوض مخاطرة كهذه لو أنه يعلم؟

ـ أتعنين أنك كنت تقولين الحقيقة بشأن حجز انريكو لك؟

ـ إنها الحقيقة المطلقة. . . هل باستطاعتك الاستدارة عند المنعطف القادم يساراً؟

أبطأ توبي السيارة عند مفترق الطرق خارج القرية التي مرا بها. ثم استدار إلى اليسار دون أن يتساءل عن سبب طلبها. وسألها:

ـ إلى أين نحن ذاهبان؟

ـ ستوصلني إلى منزلي.

كانت تشعر بالسعادة لخلاصها. فبعد وقت قصير ستكون مع هيلدا وراندل والأولاد، في الوقت المحدد للاحتفال بالميلاد. وسوف تتصل بوالتر مباشرة لتعطيه القصة، سيكون هذا أسلم لها، فعندما تفعل فلن يكون أمام انريكو أي حجة للتدخل في حياتها ثانية.

قال لها توبي ببطء بعد أن استوعب ما حدث:

ـ سيعرف انريكو بغيابك قريباً. وسيدرك أنك خرجت معي. فالطريقة الوحيدة لخروجك هي في سيارتي.

ـ وإن يكن؟ لا يستطيع أن يفعل معي شيئاً الآن. . .

أبطأ توبي السيارة وهو يقول بقلق:

ـ ولكنه يستطيع أن يفعل معي.

صاحت به سندي وهي تنظر إلى الخلف بقلق:

ـ هاي. . . لا تبطىء السيارة! فلعلهم يلاحقوننا الآن وأنا لا أريدهم الإمساك بنا.

أصبحت سرعة السيارة لا تتجاوز العشرة أميال في الساعة. وأضاف:

ـ لا تحسبي حسابي في أي شيء تنوين فعله. . . فأنت لم تقولي لي كل شيء. أليس كذلك؟ فهناك الكثير أكثر مما عرفته. لماذا لا يريد انريكو أن يتركك تذهبين؟ ولماذا أنت يائسة لهذه الدرجة للفرار؟

ـ اوه. . . لماذا لا تسأله هذا فيما بعد؟ أرجوك توبي. . . خذني إلى منزلي، كن لطيفاً.

ـ لا تؤثري علي بالكلام المعسول! إذا كنت تريدين أن أساعدك فعليك البوح بكل شيء.

ـ أريد قضاء الميلاد مع عائلتي لا مع شقيقك اللعين. اوه يا توبي لا يمكن أن تكون شريراً وترفض مساعدتي!

ـ لست واثقاً أنني أريدك أن تذهبي. فإذا لم تكوني في المنزل فسيعود انريكو للاهتمام بميراي وهذا ما لا أريده.

وأخذت تتوسله:

ـ أرجوك يا توبي! أرجوك!

ـ سيقتلني. . . وأنت تعرفين ذلك، سيكون مشتعلاً غضباً.

ـ أجل سيكون غاضباً! لكنه لن يفعل شيئاً.

ـ اوه. . . ألن يفعل؟ أنت لا تعرفينه لذا لا استطيع المخاطرة.

رمت سندي بالحذر أدراج الرياح، وقالت:

ـ حسن جداً. . . إنها مخاطرة وقد يصبح مسعوراً. وقد يمزق الأرض ويضربك ببلاطها حتى تغيب عن الوعي وقد يبتلع المسامير ويقذفك بها. . . ولكن أليس لديك روح مغامرة؟ ألن تخاطر بكل هذا حتى ترى وجهه عندما يدرك أن الوقت قد فات على ارجاعي؟

بدت الحيرة على توبي، وقد تمزق بين رغبته في الانتقام وبين خوفه من شقيقه. ثم قال:

ـ لا. . . لا استطيع. . . أعتقد من الأفضل أن أعود رأساً إلى

romancea.com

المنزل، قبل أن يلحق بنا، ويضربني. . .

ـ حسناً سأذهب إلى منزلي سيراً إذا اضطررت. . .

كانت السيارة تسير ببطء، ولم يكن خطراً أن تقفز منها، ولكن توبي أسرع ليمسك بيدها:

ـ حسناً. . . حسناً. . . لقد ربحت! فأنا لا أريدك أن تكسري كاحلك الثاني.

ـ هل ستأخذني إلى البيت؟

ـ أقسم بشرفي الكشفي!

ـ هل كنت كشافاً؟

فضحك:

ـ أبداً، ولكن لن أنكث بوعدي لك، فلا تقلقي. سآخذك إلى المنزل.

وأسرعت السيارة ثانية باتجاه منزل شقيقتها. فقالت له:

ـ قف قبل أن نصل إلى هناك. فأنا أعرف طريقاً فرعية نستطيع سلوكها. . . فلو أن انريكو وصل قبلنا فستكون سيارته متوقفة أمام المنزل. أنزلني لأذهب وحدي.

ـ أتمنى لو أنني أعرف الحقيقة. ربما تستطيعين قول بعض المعلومات لي. . . أشعر أنك مدينة لي بذلك.

ـ الخير ألا تعرف. انزلني هنا من فضلك.

ـ أواثقة أنك ستكونين على ما يرام؟

ـ طبعاً.

نظرت حولها قبل أن تفتح الباب لتختفي بين صفين من الأشجار أثناء ابتعاد السيارة. كانت الطريق خالية وأمامها دقيقتان قبل أن تصل إلى طرف حديقة منزل هيلدا. ولكن القلق الوحيد الذي كان يساورها هو أن

يكون انريكو قد وصل وعرف من هيلدا أن للمنزل طريقاً فرعية فهي لا ترغب في أن تقابله هنا حيث لا يمكن لأحد أن يراهما أو يسمعها لو اضطرت للصراخ طلباً للعون.

وتوقفت في مكانها بعد أن شاهدت شيئاً يتحرك بين الأشجار أمامها. بعد لحظة عرفت أنه رجل، فتوترت أعصابها. وهي تتساءل ما إذا كان بإمكانها التسلل دون أن يراها. أم أنه رآها؟ لم تستطع رؤية وجهه. فقد يكون غريباً لا علاقة له بالأمر، ولكن من ناحية أخرى قد يكون انريكو أو روبن.

وأخذت تتسلل من شجرة إلى أخرى، وكل حواسها متيقظة. فجأة اختفى شبح الرجل. لا بد أنه مختبىء ينتظرها. توقفت سندي مكانها، متوترة جداً حتى كادت تصرخ عندما لمس أحدهم كتفها.

●●●

٧ ـ هو في بيتها

ـ ماذا تفعلين هنا، متسللة هكذا؟

كان هذا صوت راندل، الذي أردف:

ـ لقد سمعت ضجة فاعتقدته ثعلباً، فتسللت خلف الأشجار لأراقبه. وتبين لي أنه أنت. . . هل أنت بخير يا سندي؟ ماذا حدث؟

واستدارت نحوه، ويدها على قلبها الذي كان يجري كأنه القطار السريع. وابتسمت له:

ـ لقد أخفتني حتى كادت روحي ترهق من بين جنبي. هذا ما حدث، تصور قدومك من خلفي ووضعك يدك على كتفي دون سابق انذار!

ـ أعصابك متعبة. لا بد من أنك أمضيت ليالي دون نوم. عملك هذا لا يساعدك أيضاً لأنه يوتر أعصابك. عندما أحس بأن عملي يرهقني أخرج إلى الطبيعة حيث الهدوء لأراقب الطيور طلباً لراحة أعصابي، يجب أن تفعلي مثلي.

ـ أنت تراقب الطيور طلباً لراحة أعصابك؟ هل أخبرت هيلدا هذه النظرية المثيرة للاهتمام؟

ضحك راندل بعد برهة من تفكير.

ـ لديك مخيلة قذرة! فأنت تعلمين أنني أقصد العصافير ذات الريش. ذاك أنني رجل سعيد بزواجي وهذا ما تذكرني به هيلدا عشر مرات يومياً.

هل أرسلتك لتتجسسي علي؟ لقد أرادتني أن أغرب عن وجهها الآن لأنني كما قالت أقف في طريقها، لقد أنهيت عملك أبكر مما هو متوقع، أليس كذلك؟

ـ عملي؟ عمَّ تتكلم؟

لهجتها القاسية أرجعت راندل خطوة إلى الوراء من القلق.

ـ لست أدري. . . أتكلم عما خرجت لتفعلينه كما أعتقد. لا تقلقي، لقد قيل لنا إنك في مهمة سرية لذا لن تكلمينا. . .

ـ ومن قال هذا؟ من؟ من؟

نظر إليها راندل كمن بدأ يخاف على سلامة عقلها:

ـ من اتصل بنا. . . أنا لم أتحدث معهم، لقد كنتِ في العيادة، هيلدا تكلمت معهم، اسأليها. سندي أعصابك متوترة جداً، وتحتاجين لراحة طويلة، وإذا استمريت على هذا الحال. . .

لم تتريث حتى ينهي كلامه بل حثت خطاها بأسرع ما أمكنتها منه قدمها الوارمة نازلة المنحدر نحو منزله. فتحت الباب الخشبي الموصل إلى حديقته، وسمعت خطوات راندل تتبعها ببطء. وارتعدت سندي قليلاً من البرد. ولكنها في سباق مع الوقت، ومع اريكو كوستيلا، عليها أن تصل إلى الهاتف قبل أن يصل إليها، وتوترها لم يترك مكاناً لبرودة الشتاء.

فتحت باب المطبخ العابق بالروائح الطيبة والمليء بالأطفال، وبهيلدا. . . وبرجل. . . جعل سندي تتراجع إلى الوراء مجفلة متوترة قبل أن تتنفس الصعداء عندما عرفته.

ـ والترا!

للحظات انفجر المطبخ بالضجيج بعد أن حاول الجميع التحدث في وقت واحد، ثم صرخت هيلدا:

www.elromansia.com

ـ اصمتوا . . . جميعكم!

صمت الأطفال فجأة وتراجعوا إلى الوراء أما سندي فعانقت والتر، الذي بدا مضطرباً تحت ناظري هيلدا الموافقة المبتسمة، فسألته:

ـ متى وصلت؟

ـ لقد وصلت منذ قليل أين كنت؟ قلقت عليك. اتصلت هذا الصباح وقالت شقيقتك انك أُرسلت في مهمة سرية، فاتصلت بالجريدة فأُعلمت أنهم لا يعرفون شيئاً عن الأمر. وظننت في البداية أن هذا أمر عادي، فلا يجب أن يعرف الجميع بكل شيء. . . لكنني قررت التأكد بنفسي. فاتصلت بالجميع! واتصلت بعد نصف ساعة بالجريدة فقالوا إنهم لم يرسلوك في مهمة. . . ثم تذكرت كوستيلا وقررت المجيء لأرى ما إذا كان بإمكاني تقفي آثارك. . . ماذا حدث؟

كانت هيلدا تراقبها بعيني الصقر كعادتها:

ـ سندي! ماذا حدث لقدمك؟

ـ اوه. . . لا شيء هولا يعدو الالتواء. والتر، لقد حصلت لك على قصة العمر التي ستكون لك الفرصة الذهبية إلى الوظيفة الجديدة.

ـ عرفت هذا! كان لدي شعور، ولو كنت امرأة لقلت إن هذا حس الأنثى.

قالت هيلدا بإصرار:

ـ كيف لويت قدمك؟

دخل راندل بعد أن خلع حذاءه الموحل في الخارج، ونظر بحدة إلى سندي:

ـ يا إلهي. . . ! لم ألاحظ قدمك! هل تؤلمك؟

فضحكت له:

ـ قلقتِ على حالتي النفسية إلى درجة أنستك ملاحظة شيء آخر.

ـ دعيني ألقي نظرة عليها الآن.

ـ فيما بعد. يجب أن أتحدث مع والتر على انفراد أولاً. هل نستطيع استخدام مكتبك؟

ـ أجل. على ألا تلمسا شيئاً، فهذه الأوراق على طاولتي قد تبدو مبعثرة لكنها في الواقع موجودة بالطريقة التي أريدها، وإذا حركتموها فقد لا أجد ما أريد أبداً.

ـ أعدك.

فسألتها هيلدا:

ـ هل يُسمح لنا أن نسأل ماذا يجري في منزلنا؟ لم تخبريني بعد أين قضيت الليل كله وكيف أصيبت قدمك؟ وماذا كنت تفعلين يا سندي؟ أعرف هذه النظرة التي لا تعجبني لأنها تعني دائماً المشاكل. أنت لست شخصاً مسالماً، ولا تبدو عليك السعادة إلا إذا كان هناك زوبعة. . .

نظرت سندي إلى ساعة المطبخ، وشحب لونها:

ـ ليس لدي الوقت لأخبركم الآن، يجب أن أتحدث إلى والتر قبل أن يصل إلى هنا.

قالت هيلدا بعد أن سمعت ذكر رجل:

ـ ومن هو؟ سندي ماذا كنت تفعلين؟

سحبت سندي والتر من الغرفة غير آبهة بالبرد. فالزوبعة هي بالضبط ما ستضرب الجميع عندما يصل انريكو كوستيلا. وهي لا تشك أبداً في أنه سيأتي فهي تعرفه جيداً وتعرف أنه لن يستسلم بسهولة مع أن لا شيء يستطيع فعله يحول دون سرد القصة على والتر.

قال لها والتر وهما ذاهبان نحو مكتب راندل:

ـ أريد أن أعرف من «هو» أيضاً. هل هو من اتصل بشقيقتك؟

ـ ربما.

- لقد ذهلت شقيقتك عندما ذكرت لها أن الجريدة لم ترسلك للقيام بأية مهمة فهي لم تشك لحظة في أن الرجل الذي اتصل بها كاذب.

فضحكت سندي بعطف:

- اوه. . . أنا واثقة من أنه أقنعها.

دخلا المكتب فجلست وهي تتنهد بارتياح ثم جلس والتر على حافة الطاولة أمامها. محاولاً دراسة وجهها.

- حسناً؟ أين كنت طوال الليل؟

ردت عليه بانتصار:

- كنت مع انريكو كوستيلا.

تجمد وجه والتر من الذهول:

- ماذا؟

احمر وجهها وهي تجيب:

- لا يا والتر، ليس كما تظن.

كان يمكن أن يحدث ذلك، لكنها لن تقول له شيئاً لأن الجانب الشخصي الذي حدث الليلة الماضية ليس جزءاً من القصة التي تريد نشرها كما أنها لن تعترف لأي كان بأنها وجدت انريكو كوستيلا جذاباً بجنون وأنه لولا تدخل القدر لسمحت له بمغازلتها لكنها ستأخذ كامل حذرها لتبقى بعيدة عن طريقه في المستقبل.

استرخى والتر قليلاً، رامياً عن كاهله القلق القصير، ثم ابتسم:

- حسناً، أعلم أنك لم تقصدي هذا بالطبع. فأنت لست من اولئك الفتيات، وإلا لما أحببتك.

قطبت جبينها تُرى ما نوع الفتيات اللواتي يظن بأنهن يجدن انريكو كوستيلا لا يقاوم؟ وتابع والتر سؤاله:

- ما هي هذه القصة؟

جمعت قوتها ثم راحت تقص عليه ما حدث منذ البداية. كان يستمع إليها وكأنه منوّم خاصة عندما ذكرت اسم ادوارد كاوندي. فقاطعها:

- هل أنت واثقة من أنه هو؟

- كل الثقة.

- وهل حصلت على صور لهما؟

- أجل. . . لكن انريكو كوستيلا أتلفها عندما أخذ الفيلم من الكاميرا.

أخرج دفتر ملاحظات من جيبه:

- الأفضل أن أسجل هذا، فقد أنسى شيئاً.

سجل بعض الأشياء بسرعة ثم قال:

- هيا تابعي. . .

- ثم أخذ أحدهم يطلق النار علي. . .

ففغر فاهه.

- أنت تمزحين!

- هل أبدو مازحة؟

تذكرت دهشتها حين اصطدمت الرصاصة في الشجرة قرب رأسها وقد انعكست الآن الدهشة نفسها في عيني والتر!

- يا إلهي! هذا هو سبب إصابة قدمك إذن؟ هل أصابوك؟

لا. . . أذيت قدمي عندما وقعت عن الشجرة ولولا إصابتي لما استطاعوا القبض علي لأنني كنت سأتمكن من الهرب قبل أن يصلوا إلي.

تابعت سرد قصتها، ووالتر يكتب ما تقول مبدياً ذهوله من وقت لآخر، ما كادت تنهي قصتها حتى اخشوشن صوتها فنظر إليها والتر وعيناه

تلمعان من الإثارة:

ـ ما هذه القصة! ألم تعرفي شيئاً عن الاتفاق مع كاوندي؟

ـ كان الاتفاق يتعلق بقرض ضخم، كما أعتقد ولكن انريكو كوستيلا كان كتوماً جداً.

نظر والتر إلى دفتره مقطباً:

ـ أتساءل كم سيسمح لنا المحامون استخدامه من هذه المعلومات؟ فلكوستيلا نفوذ وأنا أعتقد أن محاموه سينقضون علينا وقد يستخدم وزارة الداخلية لاتهامنا.

ـ وزارة الداخلية؟

ـ طبعاً يا سندي. . . لا بد أنهم يعرفون بالأمر! لا يستطيع كاوندي دخول البلاد دون اطلاع الحكومة على ذلك. وقبل أن نطبع كلمة واحدة، أراهن أن المحامين سيصرون على الحصول على اذن من الوزارة.

تجهم وجه سندي:

ـ لم أفكر في هذا الأمر.

ـ سأرتب القصة، وأوصلها إلى الجريدة عبر الهاتف. هل أستطيع استخدام الهاتف من هنا؟

ـ طبعاً. هل ستبقى لقضاء الميلاد معنا؟ سيسر وجودك هيلدا.

ابتسمت محاولة إظهار شوقها إلى بقائه لكنها أحست بالارتياح بشكل غريب عندما هز رأسه قائلاً:

ـ أحب ذلك، لكن لا بد لي من العودة إلى لندن لأكون قريباً من بدء المعركة فقد ينجح المحامون في منع إصدار الخبر إن لم ألحّ على ذلك.

فابتسمت سندي بعطف:

ـ سأتركك تعمل ما تريد إذاً.

تركته خارجة. غير راغبة في بقاء والتر وهذا ما أقلقها لأن مشاعرها

تجاهه قد تغيرت. كانت تعلم أنها لم تحبه لكنها توقعت أن تقع في حبه مع الوقت ذلك أن بينهما أشياء مشتركة كثيرة، كطبيعة عملهما وولعهما المشترك به وحبهما للأشياء ذاتها وتمتعهما بروح الفكاهة نفسها، وحبهما للأفلام والمسرحيات وقراءتهما الكتب نفسها، فلو أجرى الكمبيوتر مقارنة بينهما لوجد أنهما متطابقان.

ومشاعرها الوليدة حديثاً ليست بسبب انريكو الذي حسبت أنها قد وقعت في حبه فهي أعقل من أن تزج نفسها في هذه البئر العميقة لكن انريكو أظهر لها بوضوح أنها لا تفهم أبداً طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة، أو ما تريد أو تحتاج إليه نفسها منها، فتحت باب المطبخ فالتفتت هيلدا إليها ملوحة بملعقة خشبية في وجه سندي، قائلة بعدوانية:

ـ هل ستخبرينا عما يجري أم لا؟

أحنت سندي رأسها لتلعق المعلقة.

ـ هم. . . هذ رائع! ما هو؟

ـ حلوى بالزبدة لكعكة الميلاد. لا تغيري الموضوع! أين والتر؟

ـ إنه يتصل هاتفياً بلندن. ستكون مكالمة طويلة. وعندما ينتهي سأسأل عاملة الهاتف عن كلفة المكالمة سأدفع التكاليف لراندل.

ـ لا تكوني سخيفة!

رن جرس الباب في تلك اللحظة، فقفزت سندي وكأنها أصيبت بطلق ناري فقالت هيلدا وهي تجفف يديها، وتخرج الصينية من الفرن:

ـ أرجو أن لا يكون هذا بداية مرض شائع. . . لقد أصيب كل أطفال المنطقة بالحصبة الالمانية في الميلاد الماضي حتى حُرِمنا من رؤية راندل.

قالت سندي بذعر وشقيقتها تتحرك نحو الباب:

ـ لا تفتحي.

نظرت إليها هيلدا وهي تضحك وتهز برأسها:

ـ ليتني أجرؤ، لكنه عمل راندل الملزمون به. لقد نصحتني أمي بألا أتزوج طبيباً.

فصاحت سندي:

ـ هيلدا... لا تفتحي الباب!

سألتها بارتياب:

ـ لماذا لا؟ من تحسبينه قادماً؟

استسلمت سندي أمام فضول أختها فقالت:

ـ اوه... هيا... دعيه يدخل...

احمرت أذنا هيلدا وهي تنظر إلى باب مكتب والتر:

ـ من هو؟... اوه... لقد فهمت... أنت لا تريدين من الرجل الآخر مقابلة والتر. تبدين لعوب يا أختاه. من هو القادم؟ هل أعرفه؟

تراجعت سندي نحو المطبخ لترتمي على أقرب كرسي مدعية أن ذلك مرده لقدمها المتألمة لا لساقيها اللتين وهنتا بعلمها بأن مواجهة انريكو قد غدت وشيكة. وحاولت أن لا تصغي عندما فتحت هيلدا الباب الذي أدخل الهواء البارد، يرافقه صوت بارد النبرات.

ـ السيدة لاوسون؟

أجابت هيلدا بصوت مرتجف:

ـ أجل...

احست سندي بأن أختها تحدق إليه بإعجاب فهيلدا كانت سريعة التأثر إلى أن التقت براندل وهي تحب الرجال الوسيمين المديدي القامة، مما لا شك فيه أن انريكو كوستيلا قد جذبها إليه.

ـ أنتِ شقيقة سندي إذاً! لقد سمعت الكثير عنك.

بدا بشكل واضح أنه يستخدم سحره، للتأثير على هيلدا وهذا ما

أغضب سندي وجعلها لا تقوى على البقاء في مكانها، فقفزت نحو الردهة، وصرخت:

ـ أنت كاذب!

نظر انريكو إليها بسرعة، والتفتت هيلدا إلى شقيقتها بذهول:

ـ حقاً يا سندي ما بك؟

بدا أن روبن يحاول الدخول إلى المنزل وكأنه ينوي إلقاء القبض على سندي فأشارت إليه بإصبعها، وصرخت بانريكو:

ـ اخرج هذا الغوريلا من هنا. هيا... قل له أن يخرج، فلن يدخل إلى هنا.

نظر انريكو إلى روبن وهز رأسه:

ـ انتظرني في السيارة.

نظر روبن إلى سندي منزعجاً وهو يخرج:

ـ إن تشبيهك إياي بالغوريلا أمر غير لطيف يا آنسة.

قال لها انريكو:

ـ لقد جرحت مشاعره.

أخبرته سندي إن ذلك يسرها.

ـ على الأقل لم أستخدم مسدساً لأفعل هذا.

ارتجف انريكو، ورفع ياقة معطفه اتقاء البرد.

ـ هل نستطيع إقفال الباب؟ الهواء حاد كالسكين.

ردت عليه هيلدا:

ـ طبعاً... أرجوك أدخل... أنا آسفة.

أقفل الباب ثم قدّم لهيلدا إحدى تلك الابتسامات المميزة التي أذابت هيلدا وكأنها تمثال ثلج في أواسط حزيران.

قالت له وهي تفتح باب غرفة الجلوس:

ـ اقترب من المدفأة... هل لي بالمعطف؟

فك انريكو أزرار معطفه وخلعه. فأخذته هيلدا بلهفة وهي تتحسس قماشه الثمين.

ـ هل تحب أن تشرب شيئاً؟

ـ قدحاً من الشاي أرجوك. أنا لم أعرِّف عن نفسي بعد، أنا جاركم الذي يقع منزله على بعد بضع مزارع من هنا. . . انريكو كوستيلا.

كانت هيلدا تبتسم ولكن فمها تجمد الآن ثم صدر عنها صوت مذهول:

ـ انريكو. . . اوه!

ـ لم نلتقِ من قبل لكنني أعرف زوجك اسمياً لقد زارنا مؤخراً. ولست أدري ما كنا سنفعل لولا وجود طبيب ماهر في المنطقة.

لم تكن هيلدا تصغي إليه، بل كانت تنظر إلى سندي بذهول.

جلس انريكو على الأريكة ماداً يديه نحو النار متمتماً:

ـ تدخل المدفأة ذات الطابع القديم الدفء إلى قلبي. اوه، بالمناسبة، لقد أعدت سيارتك معي يا سندي. إنها خارجاً.

وجدت نفسها تبتسم لملاحظته التي بدت ظاهرياً عادية، لأن نظرة عينيه لم تكنْ كذلك إطلاقاً بل كانت تتحدث إليها بوضوح حتى أن عينيها أجابتا غريزياً. مع أن جزءاً من عقلها كان يجد من الجنون أن يتمكن هذا الرجل، من بين جميع أهل الأرض الوصول إلى تفكيرها دون أن يتكلم.

قالت هيلدا وهي ترمق سندي بنظرة عدوانية:

ـ سيارتك؟

ـ لقد تركتها في منزلي.

ـ لم تقل لنا انها تعرفك.

ـ ألم تفعل؟. . . أليس هذا ما يسمى بكتمان الأسرار؟

قالت سندي وهي تتمنى ضربه:

ـ سأصنع بعض الشاي.

فقالت هيلدا:

ـ سأصنعه بنفسي.

وتمتم لها انريكو بعد أن ابتسم ابتسامة ذابت لها هيلدا:

ـ لقد سمعت الكثير عنكم جميعاً.

ـ لم تخبرنا سندي شيئاً عنك.

سألها انريكو بصوت ناعم:

ـ هل كنت خجولة يا سندي؟

اتسعت عينا هيلدا، لأنها لم تلاحظ السخرية في صوته، لكن سندي لاحظتها، فكشرت عن أسنانها له.

ـ سأحضر الشاي إذاً. (قالت هيلدا ثم أسرعت إلى المطبخ).

ساد صمت عميق لم يقطعه إلا حسيس الخشب المحترق، وألسنة اللهب المتصاعدة نحو المدخنة.

قطعت الصمت قائلة:

ـ إذا أتيت لتمنعني من تقديم القصة إلى الجريدة فقد تأخرت. لقد وصلت إليهم الآن.

ـ أنت تتحركين بسرعة.

ـ لقد علمتني ذلك.

ـ إذاً لقد علمتك شيئاً وعلمتني أشياء أيضاً أليس هذا بأمر غريب؟ يبدو أن لنا تأثيراً مدهشاً على بعضنا بعضا.

وأحست بجفاف في حلقها، فابتلعت ريقها بصعوبة لأنه كان الآن يستخدم سحره الذي لن تستطيع مقاومته.

ـ وماذا تفعل هنا؟

أرادت لسبب تجهله إظهار غضبها لكن ابتسامته الساحرة وعينيه

الآسرتين البراقتين أصابتها بدوار. قال ببرود:

- لقد قلت انني قد جلبت لك سيارتك، التي قد تحتاجينها.

ردت عليه دون أن تظهر شكها في قوله:

- شكراً لك.

- أردت التأكد أيضاً من وصولك بسلام، لقد علمت أن توبي أنزلك بعيداً عن المنزل، ولا بد من أنك وجدت صعوبة في السير وكاحلك يؤلمك؟

- هل رأيت توبي؟

لما هز رأسه إيجاباً تصوّرت الشجار الذي جرى بينهما. . . مسكين توبي! قالت له بسخرية:

- وهل يتلقى الآن كمادات خبز وماء؟

فابتسم انريكو وسألها:

- هل حضرتما الأمر معاً مسبقاً؟

- لا . . . لقد صعدت إلى سيارته عندما كان يتحدث إليك دون أن يعرف أنني مختبئة فيها. وعندما ظهرت أمامه كاد يصاب بنوبة قلبية.

- هذا يطابق ما قاله توبي . . . لكن لا ريب أنك قد لفقت له قصة رائعة. لكن لا تقلقي فأنا لم ألم توبي لأنه لا يمتلك ذكاءك. أخاله كان ألعوبة بين يديك.

- يا لنبلك! الآن بعد أن علمت بأنني قد نقلت القصة إلى الجريدة فهل لك الرحيل ومسلحك المأجور. لقد رأيت من عائلتك ما يكفيني طوال عمري.

نظر إليها انريكو بعينين ضيقتين.

- إن استمرّ صراخك هذا في وجهي فسيكون ما تبقى من عمرك قصيراً جداً.

فضحكت بسخرية، رامية إلى الخلف رأسها الذي لمعت النار فوق

شعرها الأصهب الأدكن:

- أنت لا تخيفني! وقد تحتاج إلى بندقية لتؤثر فيّ.

- وهل اؤثر فيك الآن؟

سألها بينما عيناه الرماديتان تلمعان لمعاناً لم يعجبها أمّا يده فقد أطبقت على معصمها بقوة أجفلتها متراجعة ذلك أنها كانت تكذب. لقد أخافها دون أن يضطر إلى استخدام بندقية، لأنه يملك أسلحة أفتك وأبلغ من كل سلاح. وجذبها من معصمها، فاختل توازنها ووقعت. فجأة أحست بذراعيه تلتفان حولها بغية معانقتها فجنّ جنون نبضات قلبها. وارتجف جسدها بعنف أمام نظراته التي راحت ترمق شعرها الأحمر المنثور فوق مفرش الأريكة حيث وقع رأسها. كانت عيناه تلمعان بينما أنفاسه تتهدّج وضربات قلبه تخفق بسرعة غير منتظمة فوق قلبها، مُفقِدة إياها إحساسها بالزمان فاللحظة امتدت إلى ما لا نهاية حتى باتت لا تشعر بذاتها وهي تنظر إلى عينيه. ذلك أن كل شيء آخر تلاشى وغدا هباءً منثوراً.

ثم استوى انريكو في مقعده قائلاً:

- ربما لا أخيفك لكنك أنت تخيفينني ولست أفهم هذا. لقد تركتِ أثرك فيّ حتى بتّ تسرين في دمي كما تسري النار في الهشيم. فماذا ستفعلين بشأن تأثيرك هذا.

ابتسم لها قلقاً ثم راح يردُّ خصلات الشعر عن عنقها إلى الوراء. فقالت:

- عد إلى ميراي . . . فنحن لن نفعل شيئاً بشأن هذا الأمر. أنت ستتزوجها وأنا لا أريد أن أكون شريكة في علاقة من النوع الذي تتحدث عنه.

- لقد راقتني فكرة الزواج منها في وقت ما لأنها فتاة محبوبة ولأن أمي تريد هذا الزواج. وكنت أفكر منذ سنتين أن علي أن اتزوج لأنجب

أطفالاً. لأنني سأغدو في الأربعين دون أن أدرك. في البداية لم أشأ الارتباط ثم انشغلت أكثر فأكثر حتى عجزت عن الارتباط الفعلي بأية امرأة بسبب كثرة تنقلي. من حين لآخر كنت ألتقي بفتاة تعجبني، ألتقيها بضعة أسابيع ثم أطير إلى اليابان وإلى استراليا، فتمضي بضع شهور قبل أن أراها ثانية. وميراي هي الوحيدة التي رأيتها مدة طويلة. لقد عرفتها طوال حياتها. وفي العام الماضي بدأت التفكير: لماذا لا؟ كنت أعلم أنني لا أحبها لكنها أعجبتني وظننت أنني قد أصبح سعيداً، على كل بعد بضع سنوات من الزواج لن يهمني الأمر. فلماذا لا أنسى الحب قليلاً؟ لقد كانت نظرية جيدة...

استمعت إليه سندي بانتباه، فلاحظت رنة الصدق في لهجته، وما كان يقوله لم يكن مفاجئاً لها، فقد كان يؤكد ما قاله توبي عنه وما خمنته هي.

تركزت عيناه على النار وكأنه نسي وجودها تقريباً، ثم أردف قائلاً:

ـ وما إن قررت الزواج منها حتى وليت هارباً تقريباً. لقد ارتكبت خطأ بحقها لكنني لم أجد سبيلاً إلى التخلص من الورطة التي رميت نفسي بها.

تفاعل غضبها أكثر فأكثر. فاستوت في جلستها أيضاً، متوترة محمرة الوجنتين وهي تشخص البصر إلى وجهه:

ـ لِمَ تخبرني بذلك؟ عليك التحدث إلى ميراي لا إليّ... ألا تعتقد أنك آلمتها؟ تطلب منها الزواج ثم تختفي، تاركاً إياها تتساءل عما...

ـ أتعتقدين أنني لا أعرف ذلك؟ لا داعي إلى أن تتهميني بالجبن الذي أعرف أنه موجود فيّ. أحاول فقط أن أشرح لك كيف تورطت.

ـ أنت تختلق لنفسك الأعذار.

ـ أنت لا تتراجعين في ضرباتك... أليس كذلك؟

حدجتها عيناه اللتان راحتا تتأملان وجهها بإلحاح جعلها تخفض وجهها لئلا تعتريه مشاعر تفضحها. شعرت وكأنها تواجه عدواً سيفه مسلط على نقاط الضعف في درعها. يبدو واضحاً أنه يرغب في أن يصبح حبيبها، ولا داعي ليقول ذلك بالكلمات لأنها وعت جيداً ما يريد وإن أبطأ عقلها في الاعتراف... لكن الحبيب قد يكون عدواً أيضاً فبعض الأحيان يكون الحب خطيراً خاصة عندما يستعر بقوة يعجز عن السيطرة عليها شخصان يختلفان عن بعضهما في كل شيء إلا في نبضات القلب المجنونة.

مد يده ليرفع ذقنها حتى يجبرها على النظر إليه، فقد كان الصمت بينهما مؤلماً وهمس:

ـ سندي.

أخذت ترتجف بشدة وقد أدركت تأخرها في منع نفسها من حبه لأنها وقعت في حبه وانتهى الأمر.

تابع كلامه:

ـ ألا تعرفين ما حدث؟ أنت تعرفين... أليس كذلك؟ لو كنت أعلم... لكن أنى لي العلم بالغيب. كيف كان لي أن أعرف أنني سألتقيك في وقت أكون فيه غارقاً في العمل الذي أصبح بالنسبة لي عادة دائمة أعتقدتني أحبها. فقد راحت أيامي تمضي بركود، أمارس كل يوم الأشياء ذاتها ونظمت حياتي على أساسها. ثم كان يوم لقائنا وصدامنا الذي أفقدني السيطرة على ذاتي وعلى كل ما جرى حولي...

كاد يغمى على سندي متمزقة بين تفكيرها السليم وبين مشاعرها... لا يمكن أن ينجح الأمر هكذا، كيف له النجاح؟ إذا استمعت إليه، فقد تتألم، لأنه وإن كان صادقاً في هذه اللحظات فلا يمكن لها الاستمرار معه إذ ماذا تفعل عندما تخبو نيران مشاعره التي ولدت فجأة والتي لا بد من أن

www.elromance.com

تندثر يوماً لأن ليس بينهما شيء مشترك. كيف تستطيع الانسجام مع عالمه وثرائه الذي يفوق تصورها وأحلامها. فاولئك الرجال المسلحون يحرسونه ضد كل العالم ويبقونه أسيراً في الوقت نفسه حتى يكاد لا يجرأ على التبضع بنفسه. انريكو كوستيلا يعيش حياة غريبة. وهي تكاد لا تعرفه. لا. . . لن ينجح الأمر. . . والأفضل وقف كل شيء الآن قبل البدء به.

دفعت يده عنها ثم وقفت وهي تقول اثناء توجهها إلى الباب:

ـ ذهابك خير لك الآن.

ـ سندي!

وأصبح خلفها قبل أن تمسك مقبض الباب. سمعا قرقعة الفناجين التي كانت هيلدا تحملها فوق العربة في الردهة.

ـ آسفة لتأخري. (قالت مبتسمة).

أجابت سندي:

ـ أخشى أن يكون السيد كوستيلا مضطراً للذهاب حالاً.

ـ اوه لكنني أحضرت له الشاي.

دفعت العربة بإصرار حتى اضطرت سندي إلى التنحي عن طريقها خوفاً من الاصطدام بالعربة. وهكذا فعل انريكو عائداً إلى الأريكة. وهو يعلق قائلاً:

ـ يبدو الكعك لذيذاً هل هو من صنعك!

تباهت هيلدا بنفسها مزهوة كالطير المغرور، وهي تهز رأسها بالإيجاب.

فُتح باب المكتب فظهر والتر، مشعث الشعر وكأنه كان يمرر أصابعه خلاله بتوتر:

ـ لقد أعطوني طابعة على الآلة الكاتبة صماء لم تسمع كلمة مما قلت، كان علي أن اهجىء لها الكلمات. لذلك تأخرت. بعد ذلك

تحدثت مع أدامس، الذي سيحجز لي الصفحة الأولى إلى أن يعرض المقال على المحامين. أنا الطفل المدلل لديه الليلة وأدي لم يعد لديه أدنى فرصة في الحصول على الوظيفة الجديدة يا حبيبتي.

تقدم ليعانقها قائلاً:

ـ هل قلت لك مؤخراً إنني أحبك؟ حسناً. . . أنا أحبك، أحبك بجنون!

كانا يقفان على عتبة باب غرفة الجلوس والباب مفتوح قليلاً فاضطربت سندي واحمر وجهها. وما إن تركها والتر حتى قالت بخشونة:

ـ هل تريد بعض الشاي يا حبيبي؟ لقد أعدته هيلدا منذ قليل.

ـ أحب أن أتناول القليل إنما علي أن أذهب بسرعة كالنار لأصل قبل أن يمرر اجتماع رؤساء التحرير الحكم على قصتي.

توقف عن الكلام ليصحح كلامه ضاحكاً:

ـ قصتنا يا سندي. لن أنسى أنك التي تقصيت نبأها.

ونظر إلى الغرفة فرأى هيلدا تحمل فنجان شاي في يدها:

ـ وداعاً هيلدا، سرتني رؤيتك ورؤية الأولاد. ابلغيهم حبي، في المرة القادمة عندما تأتي سندي إلى هنا سأرافقها. ميلاداً سعيداً لكم جميعاً. أتمنى لو استطيع البقاء، ربما في السنة القادمة.

فقالت هيلدا بمرح:

ـ تسرنا رؤيتك عندنا يا والتر. نحن نطلب من سندي دائماً دعوتك.

لم ينتبه والتر لانريكو الجالس على مقعد عالي الظهر لا يبدو منه سوى قمة رأسه الأسود. عانق والتر سندي ثانية:

ـ وداعاً. . . ميلاد سعيد يا حبيبتي. سأراك عندما تعودين إلى لندن.

سنتناول العشاء في مكان خاص جداً.

ـ سأسير معك حتى السيارة.

تبعته لأنها لم تشأ العودة إلى غرفة الجلوس لتواجه انريكو لأنها رأت نفسها عاجزة عن التفكير بما عليها تحمله إذ ثمة ما أزعجها. لما رآهما روبن الذي كان يجلس داخل سيارة ضخمة يقرأ جريدة، أخذ يحدق فيهما إلى أن وصلا السيارة:

ـ قد ينهمر الثلج (قال لها هو يزرّر معطفه).

فتح والتر باب سيارته، فعانقته سندي قائلة:

ـ كن حذراً في قيادتك.

ـ سأتصل بك صباح الميلاد.

صعد إلى سيارته، ثم أغلق الباب، مبتسماً لتنطلق به السيارة بعد ذلك بسرعة.

اثناء عودتها إلى المنزل ببطء رأت روبن يخرج من السيارة فأجفلت لكنها عادت فاطمأنت لما رأت انريكو خارج المنزل وروبن يفتح له الباب الخلفي منتظراً.

تابعت سندي سيرها ببطء، غير راغبة في لقاء انريكو.

بدا لها كما رأته أول مرة: قاسياً، بارداً، عدائياً. توقف ثم حدجها بنظراته من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، ثم قال:

ـ وداعاً آنسة مورتيمور.

لم تردّ تحيته لأن فمها بقي جامداً. تجاوزها ثم صعد إلى السيارة، وما إن بلغت المنزل، حتى سمعت السيارة تنطلق بنعومة فوق الطريق.

وكانت هيلدا ما تزال في غرفة الجلوس تنظر متجهمة إلى الشاي الذي لم يمس. وما إن انضمت إليها سندي حتى نظرت إليها مقطبة:

ـ لقد شرب فنجاناً واحداً من الشاي ثم ذهب. لقد أزعجت نفسي بتحضير كل هذا...

جلست سندي، ثم تناولت طبقاً وضعت فيه قطعة حلوى بالفواكه.

ـ لا تهتمي... سأتمتع بها أنا... الطقس بارد في الخارج كيف يحتمل راندل والأولاد كل هذا البرد.

ـ لقد دخلوا المنزل الآن، إنهم في المطبخ يتناولون الشاي. لا أفهم سبب ذهاب السيد كوستيلا بهذه السرعة مع أنه أراد أن يتناول الحلوى لكنه لم يفعل بسبب والتر الذي على ما يبدو لا يعرف عنه شيئاً. هل تعين ما فعلت؟ فأنت لا تستطيعين تركهما مرتبطين بك في آن. الآن أفهم سبب طرحك كل تلك الاسئلة عنه البارحة. لماذا لم تخبريني عن معرفتك به. متى التقيته؟ ليتك غير كتومة إلى هذا الحد.

سألتها سندي:

ـ ماذا أخبرته عن والتر؟

ـ لا شيء، لأنني لا أفشي الأسرار، راقبت وجهه الغاضب ولما حاولت إقناعه بالبقاء رفض بإصرار.

انريكو يفهم الأمور بسرعة فلا ريب أنه فهم الذي بينها وبين والتر.

تناولت سندي قطعة حلوى أخرى. وبدأت تقضمها آملة أن تستطيع اكمالها:

ـ هذه الحلوى رائعة.

لم تجد سبباً لتزعج هيلدا ليلة الميلاد، مع أنها هي ستكون تعسة.

ـ هم... لا يجب أن آكل كثيراً، لكنني سأعود للحمية في الغد.

كانت تشعر بالارتياح فوجود والتر عنى أنها ليست مضطرة للكذب على انريكو كما أنه قد أنقذها من قرار مؤلم لها. والآن لن تراه ثانية، وهذا سيؤلمها لفترة، ولكن مع الوقت ستنساه. مع أنها لم تكن تدري كيف ستقضي هذا العيد مبتسمة. عندما ينظر إليها أحد يجب أن تكون حذرة في تصرفاتها لئلا يلاحظ أحد حقيقة مشاعرها.

٨ ـ دمها يسيل

اتصل والتر عند صباح الميلاد. في وقت كانت غرفة الجلوس مليئة بأوراق الهدايا الملونة، والعائلة تجلس حول النار، الأطفال يشربون الحليب بينما يحتسي الكبار القهوة. في تلك اللحظة لم يرد أحد منهم الإجابة على الهاتف خاصة راندل الذي تجهم وجهه:

ـ دعوه يرن.

كان سيأخذ عطلة ذلك اليوم، وسيتلقى شريكه كل دعوات المرضى. تابع وهو يرفع يديه وكأنه يصلي:

ـ أتمنى على الله أن يتوقف الهاتف يوماً واحداً عن الرنين.

فقالت سندي:

ـ قد يكون والتر.

قفز الأطفال الثلاثة معاً، راكضين لالتقاط الهاتف، وسندي في أعقابهم. قال رالف الذي وصل قبل الجميع ليلتقط الهاتف:

ـ ألو؟

فغر فمه بدهشة فقرب السماعة أكثر إلى اذنه، ثم أعطى السماعة لسندي:

ـ يقول إنه «بابا نويل»!

ضحكت سندي:

ـ إنه والتر، لقد اعتقدت هذا!

ـ قال إن غزلانه قد علقوا على السطح.

وعاد رالف لشرب الحليب. وتابع يقول لوالديه:

ـ إنه سخيف.

جلست التوأمتان تراقبان سندي، إحداهما إبهامها في فمها.

ـ مرحباً والتر. ميلاد سعيد، لقد أعجبتني هديتك كثيراً.

كان والتر قد أهداها كتاباً مرحاً عن الأخطاء المطبعية التي نشرت في الصحف وزجاجة من عطرها المفضل. تابعت:

ـ لقد أعجباني معاً... هل قرأت الكتاب قبل أن تلفه؟

ـ لماذا اشتريته إذاً؟ ميلاد سعيد يا سندي، شكراً لك على «الكنزة». في الواقع أنا ارتديها الآن لأن شقتي باردة كالقطب الشمالي اليوم... القصة لم تنشر، هل لاحظت ذلك!

ـ أجل... هل المحامون هم السبب؟

ـ اوه... لقد تكتموا واختاروا من المعلومات القليل القليل، ولأن الوقت كان قد تأخر قرروا تأجيل الطبع إلى ما بعد عطلة الميلاد.

ـ ولكن قد تعلن الأنباء الرسمية حتى ذلك الوقت.

ـ أعلم هذا! ولكن ما باستطاعتي أن أفعل؟ لقد وصلت لأجد أن اجتماعاً مستعجلاً قد عُقد ما بين رؤساء التحرير والمحامين، وكان هناك حظر على القصة. أعتقد أن كوستيلا تحرك بسرعة. حتى قبل أن أبلغ عن القصة، كان قد حرّك أحد موظفي الوزارة للاتصال برؤساء التحرير. لا شك في أنه اتصل لحظة اكتشافه اختفائك...

ردت سندي بوجه متجهم:

ـ أجل...

قال لها والتر مواسياً:

ـ ستكون لنا قصتنا، لقد اعتذر آدامس لي. وقال إنَّ حظي سيء.

www.elromancia.com

لكنني سأحصل على مقالتي الخاصة عندما يسمح بنشرها كما أشار إلى إنني في مقدمة الفائزين بالوظيفة.

ـ هذا رائع يا والتر.

انتهت المكالمة . . . فأخذت تساعد شقيقتها في لملمة أوراق الهدايا والعلب، وأفكارها مشغولة بوالتر. لم يكن يدري أن كل شيء قد تغير بينهما فجأة، فلو كانا متحابين فعلاً لقالت له بصراحة «آسفة لقد انتهى كل شيء» لكنهما لم يبلغا هذه المرحلة. فقد كانا في طريق الحب إذ لاحت في الأفق بادرة تشبه قوس قزح لكنها الآن اندثرت. كيف السبيل إلى وضع رأيها في كلمات؟

كانت لسنوات عدة ترفض إلزام نفسها، متراجعة أمام المشاعر، إذ من السهل خداع النفس، فالعقل اللاواعي يتعاون هنا دون تردد. أما بشأن دوافع والتر فهي لا تعرف عنها شيئاً لأنه بدا وكأنه لا يريد أن يضيف وقوداً لنار علاقتهما، فقد كان قانعاً بالأمور كما هي لأسباب لا تعرفها. ومع ذلك، فقد كان صديقاً طيباً أحبته كثيراً، ولكنه لم يوقظ مشاعرها، ولم ترغب فيه كحبيب، قط.

قالت لها هيلدا وهما تحضران عشاء الميلاد:

ـ أنت هادئة جداً وهذا ما أخشاه لأنك عندما تكونين على هذه الحال أقلق. ليتني أعرف ما تفكرين فيه. فأنت إلى الآن لم تذكري أين أمضيت تلك الليلة. لم تخبريني شيئاً البتة. لِمَ أنت كتومة إلى هذا الحد؟

ـ أريد الاستمتاع بميلاد هادىء لا الحديث عن العمل.

ـ هل كوستيلا من ضمن العمل؟

أجابتها سندي بثبات:

ـ أجل . . . إنه كذلك.

ترك هذا القول هيلدا في حالة صمت وقبل أن تستعيد وعيها دخلت

التوأمتان، تنفخان الزمامير وترتديان القبعات المضحكة وفي الوقت الذي استطاعت فيه إخراجهما ثانية، كانت قد نسيت كل شيء عن كوستيلا.

كان يوم الميلاد هادئاً ظاهرياً، الأطفال فيه سعداء وسندي تقضيه أمام شاشة التلفزيون، لكنها كانت الوقت كله تبذل جهداً لتنسى انريكو، مقنعة نفسها بأن ذاك الشعور تجاهه لا يعدو الانجذاب الذي سيخبو قريباً.

كانت تكرر قولها ذاك وهي تقود سيارتها باتجاه لندن في يوم مغبر من أيام كانون الأول. الثلج الذي كان يهدد بالهطول عشية الميلاد لم يدم سوى وقت قصير، لم يتعدَّ رذاذاً لمّاعاً ذاب قبل أن يقبل الصباح فالحرارة ارتفعت قليلاً والطريق نحو العاصمة اكتظت بالسيارات العائدة.

في اليوم التالي عادت إلى عملها. وإذ بها تجد والتر قد حصل على عطلة مدة ثلاثة أيام لأنه عمل أيام العطلة وكان قد قرر زيارة والدته خلالها. فكان ذلك فرصة لسندي التي راحت تفكر بالطريقة الفضلى التي ستخبره فيها عن انتهاء علاقتهما دون أن تجرح مشاعره أو تتورط معه في نقاش صعب.

راح الجميع يمازحها بشأن القصة التي ظهرت في أول عدد يصدر بعد الميلاد. كانت القصة مصاغة بكلمات حذرة. لكن المحررين عرفوا كل شيء عن مغامرتها وجرّوها دون رحمة للتحدث عن انريكو فهمس أحد المحررين ضاحكاً:

ـ ماذا قلت لوالتر؟ هل كوستيلا رجل رائع كما يقال عنه؟ هل هو عادة بحاجة لاستخدام السلاح لإقناع الفتيات بمرافقته إلى منزله؟

أجابته سندي بعجرفة وهي تبتعد عنه:

ـ إن لك تفكيراً حقيراً.

انفجر الرجل ضاحكاً لكن سندي لم تشعر بالتسلية لأن في ما قاله بعض الحقيقة.

اكتفت الصحف الأخرى بالبيان الرسمي الصادر عن كاوندي من بلاده. ولكن البيان تبعه قصص طويلة عن التهديدات التي أصدرتها المعارضة الثائرة ضد كاوندي، وكان المقاومون قد لجأوا إلى الجبال النائية لتجميع الدعم للقتال في يوم آخر وقد أصدر الثوار اتهامات حاقدة ضد انريكو ملمحين إلى أنه سيندم على تعامله مع كاوندي الذي سيتعزز وضعه بعد ذاك القرض.

قال والتر معلقاً:

ـ يبدو لي أن التهديد إجرامي. لا أعتقد أن عمره سيطول فإنه يجلس فوق فوّهة بركان.

صاح به أدامس:

ـ والتر!

التفت كل الجالسين حولهم ليبتسموا لسندي فقالت:

ـ توقفوا عن مهاجمة الرجل! إنه يعكس صورة سيده...

مدت له لسانها، ثم خرجت. وما إن وصلت إلى شقتها حتى اتصل بها والتر ليبلغها أن أدامس أذن له بثلاثة أيام راحة، جائزة له على السبق الصحفي:

ـ سأذهب لأزور والدتي التي تصاب عادة في الشتاء بالتهاب الحنجرة. سأتصل بك عندما أعود.

كان اليوم التالي يوم عطلة قضته في الفراش حتى التاسعة صباحاً، تناولت الفطور بكسل ثم رتبت المنزل وخرجت لتتسوق. ما إن أنهت هذه الأعمال التقليدية حتى امتد النهار أمامها مفسحاً لها المجال في التفكير بانريكو الذي غزا تفكيرها بقوة ولتحول دون ذلك قررت الخروج من

المنزل لتركب الباص باتجاه شارع أوكسفورد الذي لا يبعد أكثر من عشر دقائق عن بيتها. ففي هذا الشارع تكتظ محلات الألبسة التي اكتظت رغم برودة الطقس بالناس اغتناماً لفرصة التنزيلات.

وبما أن سندي كانت بحاجة إلى معطف شتوي فقد راحت تتجول من شارع أوكسفورد إلى «ماربل آرتش» دون أن تجد بغيتها بالثمن الذي تستطيع دفعه ولذلك عادت إلى «سلفربرج» لتشتري بعض الألبسة الداخلية ولتتناول فنجان قهوة قبل العودة إلى منزلها. توقفت عند محل «جيفنش» لتحدق بحسد إلى الروائح المعروضة هناك... فقد مسح الميلاد كل ما لديها من مال.

ـ مرحبا!

سمعت صوتاً ودوداً إلى جانبها فاستدارت وقد أجفلتها اللكنة الأميركية لتجد ميراي تقف بقربها. اصطنعت سندي ابتسامة فوق وجهها:

ـ اوه... مرحباً.

فردت ميراي الابتسامة، وقالت:

ـ هل تفعلين ما أفعله؟ أتبحثين عن صفقات؟ ألا تحبين مبيعات «الاوكازيون»؟

أجابت سندي «أجل» دون أن تضيف أنها لا تستطيع شراء ما هو باهظ الثمن. فذلك ما لا ينطبق على ميراي التي ليست بحاجة إلى السؤال عن ثمن معطف شتوي، فالمعطف الذي ترتديه لا شك في أنه كلفها ثروة... هو أزرق اللون له ياقة من فرو الثعالب مرتفعة مثل الطوق حول وجهها الناعم، كان المعطف على الطراز الروسي، له خصر ضيق، وواسع من الأسفل ينتهي بفرو أبيض عريض. وكان شعرها الأشقر مربوطاً إلى الخلف ليبرز أناقة وجهها الذي تكاد تخفيه قبعة من الفرو. فسألتها

سندي:

ـ هل تتوقعين هطول الثلج؟

فضحكت ميراي ولمست قبعتها:

ـ أليست جميلة؟ لقد اشتريتها منذ قليل مع المعطف. الطقس زمهرير في بلادي، فعندما يبدأ الثلج بالتساقط يستمر أسابيع. وشتاء بوسطن ليس نزهة فحسب.

ـ هل أنت عائدة إلى بلادك قريباً؟

ـ بعد أسبوع تقريباً، كما أعتقد، نحن في زيارة أصدقاء السيدة كوستيلا في الوقت الحاضر. اظن أنها تنوي الإقامة حتى العام الجديد.

ـ وهل أتيت من «نورفولك» لقضاء اليوم هنا؟

ـ لا... لقد قلت لك إننا نقيم عند أصدقاء السيدة كوستيلا فـ«نورفولك» باردة جداً هذه الأيام والسيدة كوستيلا تريد شراء بعض الأغراض من لندن.

ولم ترغب سندي في أن تسأل ما إذا كان انريكو معهم. فاستعاضت عنه بقولها:

ـ هل توبي يرافقكم؟

أجابت ميراي بتردد ظاهر:

ـ أجل... كنا في سيارة واحدة وقد قصدنا محل «هارود» أولاً، ولكنني لم أجد نوع الأحذية التي أريدها. لذا أحضرنا إلى هنا. توبي في مكان قريب، إنه يفتش عن بعض الأسطوانات.

ـ هل أمضيتما ميلاداً طيباً؟

ـ لقد كان رائعاً... وأنت؟

ـ أجل... شكراً لك.

ساد صمت قصير شعرت خلاله سندي بعدم الراحة، فنظرت إلى

ساعتها وصاحت:

ـ يا إلهي... انظري إلى الوقت! يجب أن أسرع... سرتني رؤيتك مجدداً... أتمنى لك رحلة موفقة إلى بلادك.

ابتسمت لها، ثم ابتعدت لتنضم إلى الجموع الغفيرة قاصدة مكاناً تشرب فيه كوب قهوة قبل أن تتابع شراء الملابس الداخلية، فهي لا تريد أن ترى توبي الذي قد يسألها اسئلة مزعجة وهو يتحدث عن انريكو.

تنهدت سندي وهي ترفع الفنجان إلى شفتيها لترتشف القهوة، يجب أن تقلع عن التفكير بانريكو. راحت تراقب الناس الذين يحتسون القهوة أو يتناولون السندويشات في هذا المكان المليء بهم إذ لا طاولة فارغة فيه. وجالت بناظريها في المكان، ثم توقفت مصدومة عندما شاهدت انريكو واقفاً بعيداً ولم يكن قد رآها، فقد كان يلتفت حوله بنفاذ صبر وكأنه يبحث عن أحد، هل هو يبحث عن ميراي وتوبي؟

توجهت نظراته إلى الجهة التي تجلس فيها، فخفق قلب سندي بقوة، منتظرة منه رؤيتها لكن عينيه تجاوزتاها. ألأنه لم يرها أم لأنه يرفض الاعتراف بأنه رآها؟ شعرت بالغثيان... لم تلبث إلا هنيهة حتى ارتد نظره إلى جهتها فتصلب جسده الطويل وحدق فيها بتركيز في وقت ضج فيه الدم في أذنيها فلم تعد تعي شيئاً مما حولهما. أحست وكأنهما وحدهما واقفان على شاطىء رحب تهدر أمواجه وتهمس، مالئة ريح مجنونة رئتيها. فجأة تحوّل الدفء في عينيه بروداً فعادت الغرفة المكتظة إلى الحياة، وعاد الناس إلى الضحك والأكواب إلى القرقعة.

لقد جرحت كبرياءه... وها هو غاضب بمرارة منها. لقد كان يبثها لواعج قلبه في بيت شقيقتها ذاكراً أو مؤكداً لها أنه ما كان ليطلب الزواج من ميراي لو التقاها قبل ذلك. لكنه جوبه بصدمة عندما سمعها تنادي

والتر بلفظة «حبيبي» وعندما سمع والتر يقول لها «أحبك». لا ريب في أنه في تلك اللحظة وعى سبب سعيها للحصول على قصة كاوندي التي ما أرادتها إلا لتقدّمها إلى والتر الذي ظهر عقب اعترافه بمشاعره لها. لا بد من أن ما حدث كان ضربة لا تغتفر ومسماراً في نعش كبريائه.

حدجها انريكو بنظرة عميقة، ثم استدار. راقبت خروجه متمزقة بين ناري الألم والراحة. وفسحت له وقتاً مديداً لمغادرة المكان، ثم وقفت دون أن تشرب قهوتها، وحنجرتها جافة بحيث وجدت صعوبة في ابتلاع ريقها. توجهت لتشتري ما تريده، ثم خرجت نحو موقف الباص الذي كان يقترب من المحطة وأخذت تركض حتى وصلت إليه في الوقت المناسب.

عندما عادت إلى عملها صباح الاثنين لم تكن في مزاج للتكاسل الذي سيجعلها تفكر بانريكو. ففي الجريدة قد تغرق في العمل ناسية بذلك انريكو ووجودها. وقد ساعدها الحظ ذاك النهار ذلك أن بعض العاملين قد تغيبوا بسبب الأنفلونزا، فكان عليها العمل أضعافاً مضاعفة. كانت في عهد مضى ستتذمر من الوضع أما الآن فقد استقبلت العمل الشاق بذراعين مفتوحتين منتقلة في المدينة من مكان إلى آخر لتعود بعد ذلك إلى المكتب وقد ظلت على هذه الحال حتى غدت في نهاية نهارها مرهقة إلى حد الموت.

صباح الثلاثاء التقت بوالتر وهي تخرج من المصعد في طابق التحرير فقال لها:

ـ بحثت عنك طوال الصباح! لدي أخبار لك! احزري من سأقابل يوم غد؟

ـ من؟

ـ احزري... هيا يا سندي... لا تكوني بليدة التفكير...

ساعطيك تلميحاً... إنها مقابلة مميزة... مقابلة العمر!

أحست برجفة باردة تسري في أوصالها... انريكو؟ وجف فمها... لا يمكن! لن يدعو والتر لمقابلته، فهو لا يعطي موعداً ليقابل الصحافيين. حدّقت في وجه والتر ووجهها متجهم. وقال لها والتر بنفاذ صبر:

ـ أنت بطيئة التفكير اليوم يا سندي. سأعطيك تلميحاً آخر! سأشتري بذلة جديدة للمناسبة! وقميصاً جديداً أو ربطة عنق. هل تأتين معي لتختاريها لي؟ أظن أنني سأحتاج إلى رأي امرأة. يجب علي أن اؤثر فيه جيداً يا إلهي! أنا مضطرب وأرجو أن لا أفسد الأمر... سندي سأذهب لرؤية رئيس التحرير غداً... أتدركين ما معنى هذا؟ إذا أعجبته سأحصل على الوظيفة!

أحست بضعف في ساقيها لكنها تمكنت من الابتسام.

ـ هذا عظيم... أنا سعيدة لك، وواثقة من أنك ستؤثر فيه.

ـ هل سترافقيني لانتقاء بزتي الجديدة؟

ـ علي أن اسأل أدامس أولاً. ثم سأذهب لتناول غداء سريع، فقد استطيع تناول سندويشات بعد أن نشتري لك البزة.

اتجهت سندي إلى قسمها، فوجدت أن اسمها مدون على لائحة الانتظار وهذا يعني أن عليها أن تكون متأهبة للطوارىء كما يعني أنها قد تجلس ساعات دون عمل أو ربما العكس.

عندما ظهرت أمام رئيس التحرير نظر إليها بسرعة ثم راح يفتش في كومة أوراق أمامه ليقرر في أي مهمة يرسلها. علمت سندي أن هذا اليوم سيكون مرهقاً لكنها لم تأسف لأن ذلك هي ما تحتاج إليه وقال لها وهو يبتسم:

ـ هاي... لدي المهمة المناسبة لك... صديقك كوستيلا موجود

في المدينة اليوم وهو سيتناول الغداء في القصر البلدي. نريد الحصول على شيء مختلف قليلاً. سيمضي كوستيلا صباحه في مقره الرئيسي، فالتقطي له صورة وهو يغادره ثم ارجعي بها رأساً إلى هنا... سوف تتمكنين من الاقتراب منه أكثر من غيرك. لأنه معجب بك... كما ستحصلين منه على ابتسامة كبيرة، أليس كذلك؟

حاولت سندي أن تشتمه لكنه رفع يده على فمها:

ـ انتبهي لكلامك...! كيف لفتاة لطيفة مثلك التفوه بمثل هذا السباب؟

انسحبت بعد أن أخذت الورقة التي سُجلَ فيها العنوان. بدأت تحس بألم في معدتها... كيف ستواجه انريكو؟ يجب أن تلتقط الصورة وتهرب دون أن يراها، وعليها بعد ذلك لملمة ما سيعتريها من مقابلتها له... أحست بالتوتر وهي تخرج من المصعد لتجد والتر ينتظرها. قال لها:

ـ هل كل شيء على ما يرام؟

ـ يجب أن أذهب إلى القصر البلدي عند الثانية عشرة والنصف. ولست أدري ما إذا كان سيبقى لدي متسع من الوقت لمرافقتك.

نظر والتر إلى ساعته:

ـ طبعاً أمامنا وقت كاف. إنها الحادية عشرة والنصف، ومحل الخياط في الجانب الآخر من الشارع.

أمسك ذراعها ثم سارا معاً نحو محل الخياط، حاملاً عنها حقيبة معداتها. وحيّا الخياط الذي ابتسم له، ثم أجلس سندي على كرسي ووضع الحقيبة أمامها... وأخذ يتناقش مع الخياط بشأن ما يريد شراءه. فتأمل القماش ثم نظر إليها سائلاً:

ـ ما رأيك بهذه؟

هزت رأسها موافقة، ولكن مضت عشرون دقيقة قبل أن ينتقي بزة تناسبه.

لم تعد سندي تنظر إلى ساعتها، فلو تأخرت فسيستاء رئيسها بغضب. لكنها تملك عذراً مقنعاً «زحام السير خانق» قال لها والتر وهما واقفان على الرصيف:

ـ هل تخرجين معي مساء الغد؟

كانا ينتظران سيارة أجرة عندما سألها هذا السؤال، فأجابته بالقبول لأنها لم ترد أن يذهب إلى مقابلته وهو مشغول البال.

قال لها بعد أن توقفت سيارة الأجرة أمامهما:

ـ أنت رائعة. أتعلمين هذا؟ أشعر بالسعادة لأنك ترفعين من معنوياتي.

أوصلتها السيارة إلى حيث طلبت. وقفت على الرصيف تنظر إلى الواجهة الزجاجية للمبنى العصري الطراز. زجاج وأسمنت دون سحر أو جمال. كان الناس يمرون بها وهي واقفة هناك. أحست بالتوتر والارتباك وهي تنظر إلى واجهة مبنى مكاتب انريكو في لندن. حيث رأت لوحة نحاسية مثبتة على الواجهة الرخامية المواجهة للباب الرئيسي: «كوستيلا ومايلز العالمية»... انريكو الذي لا شك في أنه بالداخل جزء من هذا العالم اللامع غير الإنساني، إنه سيد المكان.

نظرة سريعة إلى ساعتها أعلمتها بأن الوقت قد تجاوز الوقت المحدد المفترض أن يترك فيه مكتبه إلى القصر البلدي. لعلها وصلت متأخرة. لعله خرج من باب آخر؟ وغمرها ارتياح مؤلم فقطعت الشارع، وكانت على وشك التوجه إلى أقرب محطة مترو، عندما خرجت مجموعة من الرجال من الباب الرئيسي، أثار انتباهها تحركهم غير العادي. راقبت عيناها بسرعة وجوههم. وإذ بانريكو ليس بينهم لكنها تعرفت إلى وجه

www.elromancia.com

روبن الذي راح يلتفت ويراقب واجهات الأبنية المحيطة. راقبته سندي بحيرة وهو يتوجه إلى فسحة موقف السيارات خارج المبنى تماماً وأشار إلى السائق. . . ثم فجأة، شاهد سندي.

أجفل. . . ثم ضاقت عيناه، وتصلب جسده الثقيل ولم يلبث أن خطا خطوة نحوها، بعد أن نظر إلى الرجال الذين يرافقونه نظرة جعلتهم يحدّقون فيها عبر الشارع. ماذا يفعلون بحق الله؟ لم تستطع التراجع أو التظاهر بأنها تمر صدفة لذا فتحت حقيبتها لتخرج الكاميرا بهدوء وثقة لا تملكهما لكن لن تخشاهم لأن الطريق ليس مكاناً ريفياً معزولاً فروبن وحرسه لن يجرؤوا على اتخاذ تدبير ما بحقها في شارع مكتظ بالناس.

تحدث أحد الرجال إلى روبن، فردّ روبن وهو ينظر إليها مما يدل على أنهما يفكران بما سيفعلانه بها. وعندما لم يتحركا باتجاهها، بقيت واقفة حيث هي، والكاميرا معلقة حول رقبتها، مستعدة لتأخذ لقطات سريعة لانريكو عندما يظهر. التقت عيناها بعيني روبن بعد لحظات فابتسمت له ساخرة. إنها على صواب، فلن يجرؤ على أن يكون عدائياً معها هنا بوجود الكثير من الشهود. لم تعجب روبن الطريقة التي تثيره بها فقد ظهر الغيظ واضحاً على وجهه كذاك اليوم الذي سمته غوريلا.

فُتحت الأبواب الزجاجية للمبنى، وظهر انريكو. . . متجهاً إلى الرصيف وارتجفت يدا سندي وهي تركز الكاميرا على وجهه. قد تظهر الصورة مهزوزة، ولكنها ستعزو ذلك إلى سرعة تحركه. بعد أن صورته عدة صور استدارت لتهرب قبل أن يتمكن روبن أو أحد رجاله من القبض عليها منتزعاً الكاميرا منها. وما إن بدأت بالانصراف حتى شاهدت شيئاً يلمع من نافذة سيارة تقف قريباً في الشارع.

في وقت ما من النهار ما كانت لتأبه لما لفت انتباهها الآن لكن وجود

روبن في الناحية الأخرى للشارع ولّد لديها فكرة مجنونة جعلت تفكيرها يعمل بسرعة الضوء. ولم يستغرقها الأمر سوى جزء من الثانية لتعرف ما هو الشيء الذي لمع، إنه شعاع الشمس يلمع فوق فوهة بندقية.

أحدهم في موقف السيارات يحمل بندقية موجهة إلى انريكو، وتذكرت التهديدات التي وجهها الثوار ضده وضد كاوندي. ففهمت سبب وجود روبن والحرس الذين يجوبون الرصيف بقلق ويحدقون في ما حولهم. كاد الرعب يزهق روحها أو يوقف نبضات قلبها التي اشتدت وعنُفت. تحرّكت غريزياً بأسرع ما يمكنها مجتازة الشارع نحو انريكو وهي لا تعي أنها تناديه باسمه.

توقف وهو على وشك الصعود إلى سيارته، ثم نظر إليها من فوق سطح السيارة، ويده ممدودة على المعدن الأسود وصرخت سندي به:

ـ لا. . . لا. . . انبطح! ثمة رجل يوجه بندقية إليك.

في اللحظة التالية، عمَّ الشارع هرج ومرج، ذعر وارتباك إذ دوى الرصاص وتحرّك الحرّاس نحو انريكو الذي ارتمت فوقه أجسادهم لتحميه. كادت سندي تصل إلى سيارته عندما صدمها شيء بدا كأنه رفسة جواد أتتها من الخلف. فرمتها جانباً ليقع رأسها بين سيارتين متوقفتين فاقدة الإحساس بأي شيء حتى الألم. أخذ الرصاص يدوي متساقطاً على السيارات حولها ضارباً المعدن محطماً النوافذ ناثراً الزجاج بينما راح الناس يتراكضون ويصرخون، عبر الرصيف أمامها. ولكنها لم تكن قادرة على الحراك، استلقت في الفسحة ما بين السيارتين وتفكيرها مشلول تماماً إذ لم تعد تذكر ما حصل بل لم تعد تدري أين هي ولا ماذا يعني كل هذا الضجيج.

تملكها شعور بأن عليها أن تجبر نفسها على الوقوف. وأن عليها أن

تفعل شيئاً. لكنها لم تعد تذكر ذاك الأمر الذي لا بد من أن تذكره. تألمت عندما تحركت، لكن لسندي إرادة قوية عنيدة متشبثة دفعتها إلى رفع رأسها لتحاول الزحف. أحسّت وكأن دموعاً حارة تسيل فوق وجهها وفكرت بارتباك.

ـ لماذا أبكي؟

لكن يدها تبللت بهذا الشيء الساخن الذي ما إن ركزت نظرها عليه قبل أن تفقد وعيها حتى عرفت أنها دماء. دم؟!

أصابتها الدهشة بغباء.

●●●

٩ ـ لن أدعك وشأنك

استطاعت سندي سماع طرقات الأجراس التي تحولت لتصبح صدى يضج حولها. لا بد من أن اليوم هو الأحد، فعبست لكن ما إن تجعد جبينها حتى أحست بألم شديد دفعها إلى أن ترجع رأسها ثانية وهي تجمع قوتها لتفتح عينيها. هذه فكرة غير جيدة فإن كان اليوم أحد فلِمَ لا تبقى في الفراش ولتنام قليلاً بعد؟ كان تعباً شديداً يلفها، لا تذكر أنها قد شعرت بمثله يوماً. آه ما أروع العودة إلى النوم! ولكنها كانت تعلم أن هناك حاجة ماسة تحدوها إلى الاستيقاظ. ثمة شيء عليها عمله، لكن هذه الأجراس التي ما زالت تدق تُعجزها عن التفكير. لِمَ لا تتوقف؟ تحركت وإذ بيد تمسك أناملها التي حركتها.

ـ سندي . . .

كان الصوت يبثها شيئاً بطريقة مبهمة غير مفهومة فالكلمات تناثرت قبل أن تلتقطها لكنها أحست بقبضة تلك اليد الثابتة فوق يدها. بعد جهد كبير أجبرت جفونها على أن ترتفع.

كان أمامها أمر غير واقعي مشوش، ذكّرها بيوم كانت فيه عند طبيب الأسنان بعد أن خلع لها ضرسها. رأت جدراناً بيضاء معدنية وسقفاً أبيض، منخفضاً جداً، وشخصاً ما في ثياب بيضاء يجلس قربها. لكن كل شيء كان مشوشاً . . . والغريب أنها لا تستطيع الكلام. أخذت تتأمل ما

حولها، ثم التقت وجهاً مألوفاً لديها لكن ماذا يفعل هذا الوجه هنا؟ لا ريب في أنها ما زالت نائمة تحلم، وإلا فما تفسير رنين الأجراس هذا، والغرفة الصغيرة البيضاء هذه التي تبدو وكأنها تتحرك بسرعة كبيرة؟

جاءها صوت انريكو كوستيلا يمسح يدها بإبهامه:

ـ كيف تشعرين يا سندي؟

ـ ابتعد عن أحلامي... تباً لك... ألا استطيع الهرب منك؟

أغمضت عينيها وإذا بها تغرق بيسر في نوم عميق فقد عامت وكأنها على سطح الماء بسلام وهدوء. فالضرورة التي كانت تشعر بها ولّت.

عندما استيقظت ثانية كانت مستلقية على ظهرها والهدوء يلفّ المكان حولها. أصغت إلى الصمت فسمعت من خلاله شخصاً يتنفس. حركت سندي رأسها، فتأوهت قليلاً وسرعان ما تحرك الشخص الذي معها في الغرفة.

ـ مرحباً! ابقي هادئة... لقد وقع لك حادث وأنت الآن في المستشفى.

شاهدت وجه فتاة ينحني فوقها ونظرت سندي إليها فابتسمت الممرضة ذات القبعة البيضاء:

ـ لا تقلقي... ستكونين بخير... لقد أُجريت لك عملية جراحية. هذا كل شيء ولكن عليك ألا تتحركي بعد.

بللت سندي شفتيها بطرف لسانها ثم همست:

ـ هل لي بشربة ماء؟

ملأت الممرضة كوباً بالماء ثم وضعته فوق شفتيها فشربت سندي بعطش، وهي نصف نائمة، أم أن السبب هو المخدر؟ بدا أنها تجد صعوبة في التركيز، فذهنها يتحرك ببطء دون تركيز. بعد لحظات شاهدت حقنة في يد الممرضة، وما إن جذبت الفتاة عنها الملاءة حتى

احتجت فقالت لها:

ـ لن تؤلمك.

مسحت لها جلدها بقطعة قطن مبللة بالمطهر فأغمضت سندي عينيها حالاً وكأنها طفلة في الثالثة من عمرها.

زارها والداها في اليوم التالي فكانت أفضل حالاً من الأمس رغم المسكنات التي كانت تتناولها لتخفيف آلام كتفها المجروحة. وسمح لها بالجلوس مستندة إلى الوسائد، وكان جزء من جسدها ملفوفاً بالأربطة وكذلك رأسها. وعندما شاهدت الرباط حول رأسها اعتقدت أول الأمر أنها أصيبت برصاصة في رأسها أيضاً، لكن تبين لها بعد ذلك أن رأسها اصطدم بحافة الرصيف عندما وقعت. تذكرت الآن كل شيء: دهشتها من رؤية الدم، رحلتها في سيارة الإسعاف وانريكو إلى جانبها، ولكنها لم تذكر شيئاً عن العملية الجراحية. ولم تسأل الممرضة إلا سؤالاً واحداً:

ـ هل أصيب السيد كوستيلا؟

أحست بالراحة عندما أكدت لها الممرضة أنه لم يصب بأذى.

ـ لقد كنتِ محظوظة. فقد استقرت الرصاصة في كتفك. وانتزعت من مكانها بعملية جراحية، دون أن تترك أثراً.

ـ لكنها تؤلمني.

ـ إذاً يجب إبلاغ الطبيب.

ـ ماذا حدث للآخرين؟ أعني المسلحين.

ـ ستقرأين كل شيء في الجرائد... لقد كنت بطلة! إنما يجب سؤال الطبيب أولاً.

بدا على الممرضة عدم التصديق عندما رفضت سندي أن تقرأ شيئاً عن نفسها في الجرائد. كانت تشعر وكأنها شخص قد سُلّطت عليها أضواء تعجز عن الهرب منها ومن آلاف العيون المحدقة فيها، ومما لا

ريب فيه أن القال والقيل سيكثر عنها وعن انريكو. فالحادثة الأولى معه، كانت مهنية صرفاً، لكن الأمر الآن مختلف إذ سيعتقد الناس أنها كانت تنظر إليه بأكثر من اهتمام مهني.

عندما عاد والداها لزيارتها ثانية، حملا معهما بعض الفواكه وزرمة من الجرائد، وباقة زهور ووضعا كل شيء على الطاولة بقربها وهما يبتسمان، ثم قالت لها والدتها:

ـ ستزورك هيلدا غداً. كانت تريد أن تأتي يوم أمس، ولكن المستشفى رفضت السماح بزيارتك... أنت شاحبة قليلاً لكنك تبدين أفضل حالاً مما كنت أعتقد... هل أنت متألمة يا عزيزتي؟

ـ اوه... سأعيش، لا تخافي.

ابتسم والدها. دايفد مورتيمور رجل هادىء لم يقل شيئاً منذ وصوله إلى غرفة المستشفى الصغيرة، فهو لا يتكلم كثيراً، ولكن عندما يفعل يصغي الناس إليه. تابعت أمها:

ـ قصتك منشورة في كل الصحف. وأنا أجمّع ما ينشر عنك في كتاب. لقد نشرت صورك وأنت محمولة إلى سيارة الإسعاف.

قال السيد موريتمور:

ـ لقد بكت أمك عندما شاهدت الصور.

فجفلت أمها:

ـ لا... لم أفعل! قد يخاف أي إنسان عندما يرى كل تلك الدماء... بالطبع كان جرحاً سطحياً، ولكنه نزف أكثر من...

فقاطعتها سندي:

ـ هل يجب أن نتكلم عن الأمر؟

كانت تعلم أنها فقدت الكثير من الدم، فقد لاحظت جهاز نقل الدم معلقاً قرب سريرها عندما استيقظت أول ليلة، فارتجفت، لأنها لا تحب

منظر الدم الأحمر يقطر ببطء عبر الأنبوب البلاستيكي وفكرة خسارتها للدم جعلتها ضعيفة وعاجزة. قالت السيدة موريتمور:

ـ لقد كانت صدمة مريعة لنا. عندما اتصل السيد كوستيلا. أردت أن أركب أول قطار إلى لندن. لقد كنت في حالة...

ـ وهل اتصل انريكو بكم؟

ذهلت سندي لاستخدامها اسمه الأول، ولم تدرك ما فعلت إلا عندما لاحظت والديها ينظران إلى بعضهما بعضاً وهذا ما جعلها تحمرّ خجلاً. قالت السيدة موريتمور:

ـ كان لطيفاً جداً. فقد أصر على حجز أفضل جناح في الفندق ثم سعى إلى تقديم خدماته لنا عبر طلبه من العاملين العناية بنا كما أرسل لي أجمل باقة زهر، باقة ضخمة من الورود والقرنفل مع بطاقة رقيقة، ثم دعانا لتناول العشاء معه، داعياً هيلدا التي ستصل بعد الظهر، ولم يستطع راندل المجيء، لارتباطه بعمله، وكان على هيلدا أن تجد من يرعى الأطفال اثناء غيابها. لذا تأخرت لكنها ستراك في الغد وسنتناول طعام العشاء مع السيد كوستيلا الليلة الذي طلب منا أن ندعوه انريكو، لكنني لا أستطيع التعود على هذا الاسم...

استغل دايفد مورتيمور فرصة توقف زوجته عن الكلام لالتقاط أنفاسها فتدخل قائلاً:

ـ يجب أن لا تتعب سندي... أليس كذلك يا عزيزتي؟ أنت تعلمين ما قالته الممرضة.

نظر إلى سندي، التي كان وجهها أبيض كالوسائد المستلقية عليها.

ـ لا أدري لماذا تتكلمين عن السيد كوستيلا بهذه الطريقة. أرجو أن لا تستنتجي أشياء غير حقيقية، لأنه لا استنتاجات يمكن التوصل إليها...

فابتسمت السيدة موريتمور:

ـ لن نتوسل إليك يا سندي، سوف تخبرينا في الوقت المناسب.

فردت سندي بإصرار:

ـ ليس هناك ما أخبركم عنه!

نظر إليها والدها، فتوسلت إليه:

ـ أرجوك يا أبي، لا تدعها تفكر بطريقة خاطئة!

أحست بالفزع لأنها تصورت أن أمها ستتكلم دوماً عن انريكو بالطريقة التي تكلمت فيها منذ قليل. لا شك في أن انريكو ممتن لما فعلته سندي، فهي انقذت حياته، وأصيبت من جرّاء ذلك ولعلَّ هذا يفسّر ما تجشمه من عناء في سبيل ارضاء أهلها... إنه رجل ثري لا يعني له المال شيئاً لكن ما قام به جعل تفكير أمها يأخذ منحى آخر ولا ريب في أن هيلدا هي من وضعت هذه الفكرة في رأسها، لأنها رومانسية بطبعها. لكن سيكون انريكو محرجاً عندما يدرك الدوافع التي يعزوها آل موريتمور لتصرفاته. قال دايفد موريتمور:

ـ لا تزعجي نفسك... سأطلب من الجميع المحافظة على الكتمان اثناء العشاء.

ـ أنا دائماً كتومة، ماذا تقصد بكلامك هذا يا دايفد! وكأنني سأقول شيئاً لا معنى له! يا إلهي...

أغلقت سندي عينيها تعبة، فالحديث وتّرها وكتفها آلمتها، قبلها والدها قائلاً:

ـ سنذهب الآن، على أن نعود غداً عصراً أما هيلدا فستعودك صباحاً لأنه يمنع مجيء أكثر من شخصين لزيارتك في آن خوفاً من أن نسبب لك الإرهاق.

فتحت عينيها، فتمكنت من الابتسام له ولأمها التي سألتها عما إذا

كانت تحتاج لشيء ما. عندما خرجا، دخلت الممرضة مع الطبيب الذي فحصها.

ـ أنت تتحسنين بشكل رائع (قال الطبيب) صحتك على ما يرام.

خرج من الغرفة وهو يبتسم لها قائلاً:

ـ استريحي الآن.

نامت نوماً متقطعاً، فيه كوابيس عن الرصاص الذي كان يئز فوق رأسها وعن الزجاج الذي تحطم اثناء زحفها التماساً للنجاة التي تراها أمامها ولا تستطيع الوصول. استيقظت في إحدى الليالي وهي متأكدة من أنها سمعت صوت تنفس بقربها لكن عندما فتحت عينيها لم تجد أحداً، مدت يدها إلى الجرس بقربها لتطلب الممرضة.

بعد لحظة أقبلت الممرضة قائلة:

ـ هل أزعجك؟

ـ ماذا؟ من؟

ـ اوه لا شيء...! لماذا قرعت الجرس؟

ـ أريد أن أشرب... هل كان الطبيب؟

صبت لها الممرضة كوب ماء ووضعته على فمها دون أن تجيب، وبعد أن أنتهت قالت لها:

ـ عودي إلى النوم.

شدت الغطاء حولها وهي تشعر أنَّ الممرضة لن تجيبها عن السؤال.

نامت سندي عدة ساعات وعندما صحت أحست بجوع واهم لأنها لم تستطع تناول إلا القليل من الطعام عندما قدُم لها. بعد أن انتهت من تناول وجبتها استلقت ثانية فوق الوسائد فأتت الممرضة لتمشط شعرها ولتغسل يديها ووجهها لأن سندي كانت عاجزة عن ذلك بسبب ضعفها.

ـ هل تتوقعين زائراً آخر؟ أنت تعبة، ألا تشعرين بهذا؟

كان هذا صحيحاً لكن لم يعجبها أن يتخذ غيرها القرارات عنها.

ـ أنا بخير... أحب أن يزورني أحد.

فتحت الفتاة الباب وقالت لشخص ما:

ـ تستطيع الدخول الآن.

دخلت السيدة كوستيلا حاملة باقة ورد كبيرة، جعلت الممرضة تقول:

ـ اوه... أليست جميلة... أنتم تدللوننا كثيراً... هذه الغرفة اصبحت كمحل بيع الزهور!

ناولت السيدة كوستيلا الباقة لسندي، ثم مسحت بيدها فوق أصابعها، وابتسما لبعضهما بعضاً... قالت السيدة كوستيلا:

ـ يداي باردتان كما أخشى.

ـ أشكرك على هذه الأزهار الجميلة التي تدل على لطفك.

تقدمت الممرضة لتأخذ الباقة من سندي قائلة:

ـ أتسمحين بأن أضعها في مزهرية؟

جلست السيدة كوستيلا على الكرسي بعد أن أغلقت الممرضة الباب.

ـ كيف حالك الآن؟

ـ بخير... شكراً لك.

ـ كان علي أن أعودك لأشكرك على شجاعتك فلولا... أنا... لا أطيق التفكير بالأمر... أنت، لقد كدت... لست أدري ما أقول، أنا خجلة من نفسي!

ـ أرجوك! أي إنسان كان ليفعل ما فعلت...

ـ لا... لا... لا تقللي من أهمية الأمر، فأنت التي أنقذت حياته. فلولا صرختك لأصابته الرصاصة التي وقعت على بعد سنتيمترات منه

كما قال هو. فلولا التفاته إليك لخرقت الرصاصة جبهته...

توقفت عن الكلام، لتبتلع ريقها، أما سندي فتنفست متألمة وقد غدت شاحبة مذعورة لإدراكها أن الموت كان على قيد أنملة من انريكو وهو باق على هذه الحال دائماً ما دام يسير تحت اضواء الشهرة القاتلة. كيف يحتمل هذا الوضع؟ وكيف تقدر أمه على احتماله؟ فلو كانت مكانها لما استطاعت النوم وشخص تحبه في خطر دائم.

حبّه يعني الألم والقلق والتهديد، فحياتنا معاً ستكون مهددة باعداء ينوون تدمير أي سعادة قد نحققها، وأنا أرفض العيش في تهديد دائم.

قالت بغضب:

ـ لماذا لا يكون أكثر حذراً؟

مالت السيدة كوستيلا إلى الأمام وهي تتنهد:

ـ أتظنين أنني لم أقل له ذلك؟ انريكو عنيد مثل أبيه تماماً، إنه يحتفظ بمشاكله لنفسه معتقداً أنه يقدِّم لي معروفاً... هل تؤلمك كتفك كثيراً؟ انريكو قلق جداً عليك، لم أره منذ الحادث ولكن لا تقلقي يا عزيزتي... يمكن اجراء عملية جراحية لك لاخفاء أثر الجرح الذي سيندمل ويختفي نهائياً بعد بضعة أشهر حيث تعودين إلى ارتداء المايوه دون حرج.

فابتسمت سندي، ثم حاولت تغيير الموضوع.

ـ هل الطقس بارد الليلة؟

ـ انه زمهرير... يقولون إن الثلج سيتساقط غداً، وهذا ما أتوقعه لأن الحرارة انخفضت كثيراً. والطقس رديء جداً في أميركا حيث يتوقع هبوب عاصفة ثلجية في نيويورك. لذا لا أحسبني في عجلة من أمري للعودة إلى بلادي.

ـ أما زالت ميراي معك؟

ـ طبعاً.

ابتسمت سندي بقلق، لماذا سألت هذا السؤال الذي لا بد من أنه قد ذكر السيدة كوستيلا بأشياء كانت قد نسيتها في غمرة اعترافها بجميل سندي. فوقفت قائلة:

ـ تبدين تعبة يا عزيزتي. الأفضل أن أدعك تخلدين للراحة.

ـ زيارتك لطف كبير يا سيدتي... أشكرك على الزهور.

ـ هذا كلام سخيف لأنني لا أعرف كيف أشكرك على صنيعك...

انحنت لتقبل سندي وقد شعرت أنها عاجزة عن إتمام كلامها:

ـ شكراً لك.

بعد أن خرجت، بقيت الغرفة عابقة برائحة عطرها الذي التصق بشعرها وبشرتها، تنهدت سندي وهي تشعر بالقلق والحزن. ها هي الآن تحب والدته أكثر لأنهما أصبحتا أكثر تفاهماً، خاصة عندما تتحدثان عنه. لكن سندي عرفت أن الجدار بينهما عاد للارتفاع لحظة ذكرت ميراي. فقد تكون السيدة كوستيلا شاكرة لها صنيعها. لكنها في الأمور الأخرى ما زالت كما هي.

مدت يدها بحذر لتلتقط إحدى الصحف التي جلبها لها والداها فقرأت قصة محاولة الاغتيال في الصفحة الأولى.

علمت للمرة الأولى أن القاتلين المأجورين قد قتلا إثر اصطدام سيارتهما بواجهة سوبر ماركت وكان من حسن الحظ أن الزبائن سلموا جميعاً من الأذى كما سلم المارة أيضاً باستثناء رجل أذاه الزجاج المتطاير. إضافة إلى إصابة أحد حراس انريكو بيده واصطدام سيارة عابرة وجرح سائقها.

أكثر ما أزعجها في المقال الصور التي أظهرت بوضوح الشارع

الضيق والسيارات المتوقفة في منتصف الطريق والزجاج المحطم المنتثر فوق الرصيف، وسيارات الاسعاف ورجال البوليس المنتشرين في كل مكان. في إحدى الصور بدت هي فوق الحمالة، وجهها يكاد لا يعرف من جراء بقع الدم التي سالت عليه. كان يقف في هذه الصورة انريكو إلى جانبها وقد بدا مختلفاً مصدوماً وأكبر من عمره. وحدقت في وجهه فارتجفت من تلك الفكرة التي ترعبها، فكرة الموت الذي كان وشيكاً منه. أوقعت الجريدة، ثم استلقت مغمضة العينين لكن عقلها الباطني أعاد صورته إليها فصرخت بذعر «انريكو!». بعد أن عادت الذكرى المرة، عادت معها الرجفة والخوف والبرد الشديد الذي جعل أسنانها تصطك.

دخلت الممرضة بعد لحظة، وما إن رأتها على هذه الحال حتى سارعت لاستدعاء الطبيب الذي سرعان ما أتى ليرفع كم ثوبها. عندها أحست وكأنها تطفو فوق الماء وكل عصب في جسدها يخفق بعنف. وما هي إلا هنيهة حتى غرزت إبرة الحقنة في جسدها، ثم نظر إليها الطبيب قائلاً:

ـ لا تقلقي، إنها صدمة متأخرة.

التقط الجريدة من أمامها، ونظر إليها:

ـ من هو الأبله الذي تركك ترين هذا؟

فقالت الممرضة:

ـ لست أنا يا دكتور... لعل أحد الزائرين قد أتى بها... لا استطيع تفتيشهم. فالناس دائماً يفعلون مثل هذه الأشياء.

ـ هذا أمر سخيف!

غفت سندي رويداً رويداً بعد أن هدأت خفقات قلبها ودفء قلبها

وخفّت رجفتها لكن كابوساً مرعباً قد اجتاح خيالها. كانت تقف في وسط الشارع تراقب انريكو. فجأة علا الرصاص وعنُف فحاولت تحذيره، أرادت أن تركض إليه، لكن قدميها تسمرتا، وصوتها اختفى عاجزاً عن إصدار كلمة. أحست بأن قلبها يكاد يخرج من بين ضلوعها ذعراً وهلعاً لكنها استطاعت أخيراً بقدرة قادر على الصّراخ:

ـ «انريكو. . . لا. . . لا. . .».

وصحت على نفسها تجلس في فراشها وسط الظلام والعرق ينضح منها. بقيت لحظات غير واعية لمكان وجودها. ثم أحست بذراعين تحيطانها وبيد تمسح شعرها، وصوت يهمس:

ـ هس. . . أنت بأمان. . . سندي. . . أنت بأمان. أنا معك.

لم تر وجهه بسبب الظلام الحالك في الغرفة الصغيرة. نظرت إليه وهي تكاد لا تصدق أنه معها. استرخت بين ذراعيه رغم الرجفة التي لم تبرح جسمها المسرور بوجوده وبقائه حياً.

همست بصوت متقطع:

ـ لقد حلمت أنهم قتلوك بينما أنا عاجزة عن منعهم. لم استطع أن أتحرك. . . وكأنني كنت منومة، كان كل شيء يحدث دون أن أقدر على فعل شيء. لقد كدت أجن. . . الأمر رهيب.

قبّل شعرها:

ـ هس. . . انتهى كل شيء. لم يحدث هذا. أنت سالمة الآن. عودي إلى النوم يا حبيبتي.

ـ لا استطيع. . . لن استطيع احتمال هذا الكابوس ثانية، أراه في نومي دائماً. . . إن ما يرعبني أنني أكون فيه عاجزة كل العجز.

ـ سأضيء النور لأستدعي الممرضة لتعطيك مهدئاً.

تحرك انريكو، وكأنه يريد أن يتركها، فوضعت ذراعها حول رقبته وتمسكت به.

ـ ليس الآن. . . لا أريد أن تضيء النور.

عندما يشع النور، سيحطّم الظلام الذي يلفهما وعندها سيزول كل شيء وستعود هي إلى وعيها لتطلب منه الرحيل وعدم العودة إذ ستزيد رؤيته الأمور سوءاً.

أعادها انريكو بلطف إلى الوسائد ثم سألها:

ـ هل تؤلمك كتفك؟

أردات أن تقول له الحقيقة، إن كتفها لا تؤلمها كثيراً كما تؤلمها لمسة يده، إنها تريده أن يستمر في مسح شعرها وتقبيله، ولكن أفكارها هذه تعود إلى أنها مخدّرة عاجزة عن السيطرة على سخافتها.

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ أزورك.

ـ لماذا؟

وكأنها تعني: لماذا تزورني عندما أكون نائمة؟ لماذا لا تأتي وأنا مستيقظة؟ فقال لها بصراحة:

ـ لقد قلت لي بصراحة إنك لا تريدين رؤيتي لذا أزورك بضع دقائق عندما أعلم أنك نائمة.

صمتت سندي وتذكرت المرات العديدة التي كانت تستفيق فيها ولديها إحساس أكيد أن شخصاً قد غادر الغرفة حالاً. وسألها:

ـ هل أدعو الممرضة الآن؟

أضاء النور فرفرفت سندي بعينها مجفلة. وهي تعلم أن منظرها مريع، فلا شك في أن شعرها مشعث ووجهها شاحب وثوب المستشفى غير أنيق. وهذا يعني أن النظر إليها وهي على هذه الحال لن يؤثر في قلب

أي رجل. قالت:

ـ لا أريد أقراصاً منومة. أشعر برأسي وكأنه مليء بالقطن...

ـ أنت بحاجة للنوم.

ـ أعلم أنني أبدو فظيعة المنظر.

نظر إليها انريكو: عيناه الرماديتان تلمعان، وناظراه اللذان أصبحا كجمر بركاني أسود اتسعا نتيجة المشاعر التي اعتملت في داخله.

ـ تبدين جميلة.

التقط يدها وانحنى رأسه الأسود الشعر فوقها وهي تنظر إليه بصمت أحست بفمه يضغط على راحة يدها مسبباً لها الألم في قلبها فقالت بخشونة وهي تسحب يدها:

ـ لا تفعل هذا! لا يجب أن تفعل! اوه... ألا ترى أن الأمر مستحيل؟ لا استطيع، لا استطيع!

انفجرت بالبكاء، فمسح دموعها بيده فهمست مرتجفة:

ـ أرجوك... اذهب من هنا.

فوقف انريكو ببطء ثم قال:

ـ لن اعتذر عن حبي لك. فأنا مدين لك بحياتي... وهذا ما يعطيني الحق بأن أحبك. أظنك مخطئة، قد أكون مجحفاً بحكمي... وقد أخدع نفسي بالقول أنك ستسعدين معي... لكن لا أخالني مخطئاً. فإن كنت تحبينه أو تظنين أنك تحبينه فتزوجيه لأنني لن أقدر على فعل شيء حيال ذلك. لكني أرجو منك عدم الاستعجال في هذا الموضوع، صحيح أنني لا أعرفك... وأنك تعرفينه منذ مدة... يا إلهي هذا الوقت ليس وقت الحديث عن هذا الأمر... لكنني لا استطيع تركك تتسرعين في زواج لا أظنه يناسبك. لا أريد منك أكثر من التريث واعطاء نفسك فرصة للتفكير.

أصغت سندي إليه بارتباك في البداية، إلى أن ظهر لها أنه يظن أنها ستتزوج من والتر، وان رفضها له عائد لهذا الواقع، وهي تستمع أدركت أنها لا تستطيع تركه يعلم الحقيقة، يجب أن لا يعرف أبداً لماذا لا تريد أن تتورط معه، وإلا سيضغط عليها ليقنعها بتغيير رأيها. إنه لطيف معها الآن لأنها مريضة، ولكن انريكو ليسَ بالرجل الذي يقبل الرفض بسهولة. وعندما تستعيد عافيتها تماماً... سيعود، وفي المرة القادمة سيكون ضغطه عليها لا يطاق.

فقالت بخشونة:

ـ لن أغير رأيي يا انريكو. أرجوك، دعني وحدي.

وأغمضت عينيها اللتين اغرورقتا بالدمع. كان بإمكانها منع هذه الدموع ولكنها اختارت أن تتركها تنساب. أرادت أن يخرج انريكو بسرعة، فهي ما عادت تحتمل وجوده أكثر من ذلك.

ساد الصمت... ثم انحنى ليقبل شعرها ولم يلبث حتى رحل. عندها تسارعت الدموع التي لم تستطع سندي إيقافها عن الجريان فوق وجهها.

●●●

١٠ ـ أقوى من القدر

زارها والتر بعد عدة أيام. وكانت سندي تجلس في السرير تقرأ مجلة وهي لا تتوقع زيارة أحد، لأن والديها وهيلدا تركوا لندن، وكانت قد سمعت وقع خطوات الزوار كالعادة في الممر، ولكنها لم تكن تتوقع أحداً، لذا عندما فتح الباب نظرت إليه متوترة، ويدها تقبض بشدة على المجلة. وقالت بعد أن عرفت من القادم:

ـ اوه. . . مرحباً والتر! ادخل!

تقدم منها ثم قدم لها صندوقاً من العنب الأسود؛ وهو يبتسم متوتراً. شكرته، ثم أخذت الصندوق منه وهو يسألها عن حالها. جلس على حافة سريرها بعد أن فتح سترته الجلدية. وهو يبدو مضطرباً لكن الناس يضطربون في المستشفيات عادة، ثم قال فجأة:

ـ لقد حاولت رؤيتك منذ أيام. . . لكنهم لم يسمحوا لي بذلك لأنني كما قالوا لست مدرجاً على لائحة زائريك. وأعتقد أنني أعرف من وضع هذه اللائحة؟

ـ سُمح لعائلتي بزيارتي.

ـ ولانريكو كوستيلا أيضاً!

ـ هيا. . . لا تبقيني منتظرة. . . هل حصلت على الوظيفة؟ أم أنك لم تعرف بعد؟

تحول انتباهه فجأة كأي شخص يجري الحديث عنه. توقف عن

التجهم ليبتسم:

ـ لقد حصلت عليها!

ـ اوه، هذا رائع!

ـ لقد وصلني الخبر بالأمس فقط، بعد أن تأخرت الرسالة أربعة أيام أليس هذا جنون؟ أربعة أيام!

راح يأكل العنب وهو يتحدث مسروراً. أخبرته سندي أنها مسرورة من أجله لأنه الوحيد الذي يستحق الوظيفة. بعد ذلك روى لها تفاصيل مقابلته مع رئيس التحرير بحذافيرها ابتداءً من تعليقاته الذكية انتهاءً بتجاوب رئيس التحرير.

ـ لقد تحدثت مع أدامس أيضاً، إنه سعيد لحصولي على الوظيفة. ويريد مني أن أكتب عنك مقالاً للجريدة، قلت له بأدب أن يتخلى عن الفكرة. . . لقد حاول أن يزورك هو أيضاً. . . هل علمت بالأمر؟

هزت رأسها نفياً، فأضاف وقد رأى استغرابها.

ـ لم يستطع تجاوز الحظر بدوره، لأن المكان اكتظ فترة برجال الصحافة الذين أرادوا مقابلتك. . . وقد اضطر الحرس إلى إنزال مصورين عن الحائط كانوا يحاولون التقاط صور لك عبر النافذة.

ـ يا إلهي!. . . لقد أصبحت محط الأنظار. . . يا للسخرية!

فضحك والتر:

ـ حسناً. . . هذه هي ضريبة الشهرة.

توترت سندي ونظرت إلى البعيد، فسألها والتر:

ـ هل صحيح أن كوستيلا سيدفع كل فواتيرك وأنه أمضى وقتاً طويلاً هنا؟

ـ أين سمعت هذا؟

لا شك في أن هيلدا هي التي أفشت خبر دفع انريكو للفواتير

وتكاليف العلاج، ولكن كيف وصلت إلى اسماع الصحافة. وقال والتر:

ـ شارع فليت كله يعرف بالأمر. وأنت تعرفين أن الله وحده يعلم من أخبرهم. أعتقد أنهم دفعوا ثمن المعلومات لشخص يعمل هنا. كم من الحقيقة وراء هذه الأخبار؟

ـ لست أدري عما تتكلم.

ـ لا تقلقي لن أكرر كلمة مما ستقولينه... لكن إذا كان الأمر صحيحاً وإذا كان اهتمام كوستيلا بك شخصياً، ألا تظنين أنّ من حقي أن أعرف.

لم تدرِ سندي ما تقول له، حدقت في الجدار وهي تعضّ شفتها. فانتظر والتر دقيقة، ثم قال:

ـ حسن... فلنُعِد صياغة السؤال بطريقة أخرى. هل ما نشر في المقالات إشاعات كاذبة؟

لم تستطع سندي أن تكذب عليه، فبقيت صامتة، والصمت هذا جعل والتر يتنهد، وقال:

ـ حسناً... ها قد عدت للصمت!

ـ أنا آسفة يا والتر... لا استطيع التحدث عن الأمر، وليس سهلاً كما يبدو لك... فليس هناك ما استطيع أن أقوله... فأنا لست... أنا واتريكو لسنا... اوه... الأمر معقد كثيراً، لا استطيع التفسير.

ـ لا تشرحي إذن...

ـ والتر... أنا آسفة...

ـ سأتغلب على هذا، فقلبي لم يتحطم بعد.

وقف متابعاً:

ـ سأشتاق إليك... لكني أرجو أن تكوني سعيدة، مع هذا الرجل الذي أعتقد أنه لا يناسبك فهو لن يخلص لك مدة طويلة وهذا سيعني لك

الألم؛ أتمنى لك السعادة. لكني قبل أن أذهب أنصحك بالابتعاد عن الأعمال المجنونة فعندما يبدأ إطلاق الرصاص ثانية ابتعدي عنه ما أمكنك ذلك!

ابتعد خارجاً قبل أن تجد ما تقوله له. جلست تراقب الباب يقفل والدموع في عينيها وبكت فيما بعد كثيراً. ولما جاءت الممرضات حاولت اخفاء بكائها الذي يدل على غبائها. لكنهن لاحظن دموعها فكان ان قالت إحداهن:

ـ اوه... هذا أمر طبيعي جداً. إنه جزء من عملية الشفاء. فأنت لا تستطيعين تمالك نفسك جيداً في هذه المرحلة لذا قد تبكين بسهولة لأتفه الأسباب.

ردت سندي بمرارة:

ـ ما أحسن ذلك!

ضحكت الممرضة:

ـ أنت على وشك الشفاء. لن يمضي وقت طويل قبل أن ترحلي.

ـ يبدوعليك الشوق للخلاص مني... متى استطيع الذهاب؟

ـ لا تسأليني... اسألي الطبيب!

قبل أن تغادر هيلدا لندن، ذهبت إلى شقة سندي، فأحضرت لها حقيبة تحتوي على عدة فساتين نوم لترتديها بدل ثوب المستشفى الأبيض كما احتوت الحقيبة تنورة وبلوزة وسترة صوفية، وبعض الثياب التي سترتديها يوم يسمح لها بمغادرة المستشفى.

مر اسبوع قبل أن تأتي رئيسة الممرضات لتقدم لها الحقيبة وهي تبتسم قائلة إنه قد أُذِن لها بالرحيل.

ـ متى...؟ غداً؟ علي الاتّصال بشقيقتي لتحضر سيارة تقلني.

- لا داعي إلى ذلك إذ ثمة سيارة ستصل بعد نصف ساعة لتقلك إلى حيث شئت. فارتدي ملابسك، آنسة موريتمور.

- سيارة؟ ومن. . .

ابتلعت سندي بقية السؤال ما إن التقت نظرتها بنظرة رئيسة الممرضات المتسائلة، فهي لا تحتاج للرد على سؤالها، لأن انريكو طبعاً من قدّم السيارة، أليس هو أيضاً من دفع الفواتير. وكان ذلك كرم منه لا يجب أن ترفضه، لأنها تعرف أنه ما فعل ذلك إلا لأنها أنقذت حياته. لم تكن قد شاهدت انريكو منذ تلك الليلة في غرفتها. إلا أنه لم يبرح تفكيرها منذ ذاك الوقت وكم كرهت نفسها على ضعفها هذا.

سألتها الرئيسة:

- هل أساعدك على ارتداء ثيابك؟

- لا شكراً لك.

كانت قد خرجت من السرير ومشت نحو الحمام عبر الممر منذ عدة أيام، لكن عندما خرجت رئيسة الممرضات أحست بأنها ترتجف. وساقاها تضعفان.

جذبت الكنزة فوق رأسها، بعد أن نظرت في المرآة. . . لماذا لا تستطيع أن تنسى انريكو؟ كيف يسمح لنفسه بإحضار سيارة قبل أن يستشيرها؟ لكن لو استشارها هل كانت لتقبل؟ أحياناً كانت تستيقظ ليلاً خائفة، مذعورة من أن تطبق عليها سلطة انريكو الذي لن يستسلم أو يقبل الهزيمة. صحيح أنه ابتعد عنها منذ أن طلبت ذلك منه لكنها لم تشعر بأنه قد ابتعد حقاً. فهي هنا لأنه أراد ذلك ولا شك في أنه سيقاتل ليبقيها تحت سيطرته وسلطته.

عادت إليها الممرضة فجأة لتسألها:

- تحسنين الصنيع؟

أجفلت سندي، فقالت الممرضة:

- هاي. . . أعصابك مرهفة هل لي بمساعدتك؟ فالسيارة تنتظرك.

مدت لها سندي يدها وهي تبتسم:

- شكراً لما فعلتموه من أجلي.

سارت الممرضة حاملة حقيبة سندي فتبعتها الأخيرة بحذر وبطء خوفاً من أن تتعثر خطواتها.

سارت الممرضة إلى جانبها، تمسك بيدها وكأنها غير قادرة على السير بمفردها. وما إن ظهرتا في الشارع حتى رأت سندي سيارة فخمة متوقفة في الخارج. فتوقفت وبدا القلق عليها وأخذت ترتجف، وكادت تتراجع وكأنها جواد مذعور لا يعرف ماذا يثير ذعره. فقالت الممرضة:

- لا تقفي هكذا. . . ستتعبين نفسك. . . ادخلي السيارة.

أعطت الحقيبة إلى السائق الذي يرتدي بزة رسمية، فأخذها ليضعها في الصندوق، ثم أصعدتها الممرضة إلى المقعد الخلفي وهي عاجزة عن الحركة فقالت الممرضة قبل أن تقفل الباب:

- اعتني بنفسك. . . واتبعي نصيحة الطبيب. . . حذارِ المخاطرة ثانية عندما يمتلأ المكان بالمسلحين.

جلست سندي تنظر أمامها عندما تحركت السيارة مبتعدة رويداً رويداً حتى اختفت المستشفى عن الأنظار. . .

كان الزجاج بين السائق والمقعد الخلفي مغلقاً تماماً لكنّها تمكنت من الهمس أخيراً:

- أريد الذهاب إلى شقتي.

لم تتلق رداً. وهذا ما كسر الجمود الذي كان يتملكها. فصاحت بغضب:

- هل سمعت ما أقول؟

صدمت عندما نظرت إليه، وعرفت من هو، فقد أدركت بإحساسها وجوده المسيطر فتفاعلت مشاعرها بجنون وهي تبتلع ريقها بصعوبة.

- يجب أن أتحدث إليك.

بدت عيناه رغم هدوء صوته مرتبكتين.

همست:

- لا شيء يقال بيننا.

لم يكن ما قاله صحيحاً لأن بينهما الكثير مما يجب قوله كأن تعترف له بحبها الكبير، وكأن تتطلب منه عدم النظر إليها بهذا الأسلوب لأنه يعذّبها ويعذب نفسه في آن تاركاً ألماً هما بغنى عنه. آه لو يتعقل ويفهم أن من المستحيل حبهما.

قال انريكو بلهجة فولاذية:

- لدي أقوال كثيرة عليّ البوح بها واعلمي أنه لن يردعني شيء مما ستفعلينه عن قوله.

- لا فائدة... أنت تضيع وقتك! إلى أين ستأخذني؟

- أولاً إلى شقتي وثَمّ إلى منزل شقيقتك.

- أوصلني حالاً إلى منزل هيلدا... أرجوك يا انريكو! لن أحتمل أكثر.. لقد عانيت بما فيه الكفاية!

- أنت من عانيت بما فيه الكفاية؟ وماذا عني؟ أتعتقدين حقاً أنني سأقدر على عدم رؤيتك ثانية؟ ألا تعلمين ماذا سيفعل بي ذلك؟ توقفي عن الادّعاء بأنك لا تشعرين بما أشعر به فلن تقدري على اخفاء مشاعرك بعد الآن وكذلك أنا، لأننا نعرف ما حدث. لم أدرك شدة حبي لك إلى أن شاهدتك مغطاة بالدماء، مرمية أرضاً. في تلك اللحظة كدت أفقد صوابي لأنني ظننتك قد قتلت. كادت الصدمة تقضي علي، فاعتقادي بأنني

أوشك أن أفقدك أعلمني أنني لن أطيق فراقك ثانية.

شحب لونها من جرّاء قوة كلماته القاسية.

نظر إليها انريكو وفمه يرتجف. لم تستطع الادّعاء بأنها لم تلاحظ ذلك. إنه الواقع نفسه الذي عرفته منذ الليلة الأولى التي التقيا بها. فهذه القوة التي تجذب أحدهما إلى الآخر كانت موجودة منذ البداية لكنها الآن أعمق وأشد فكل ما جرى بينهما يبرر تلك الجاذبية الصاعقة التي كانت منذ لقائهما الأول.

- لا تدنُ مني أرجوك.

أحست به يتوتر، ويكافح للسيطرة على نفسه واستدار لينظر من النافذة. ثم استدارت السيارة لتقترب من مجمع سكني فخم حيث توقفت خارج أحد المداخل. وخرج السائق وسار ليفتح بابها، لكن انريكو كان أسرع منه في الوصول إليها ليساعدها بلطف على الخروج، قال لها انريكو وهما يتوجهان نحو البناء:

- نحن في طريقنا إلى «نورفولك».

كانت سندي ترتجف بقوة اضطرتها إلى الاتكاء على انريكو بينما راح عقلها يفكر في وسيلة ما تستطيع من خلالها إقناعه بالابتعاد عنها دون أن تعترف له بمشاعرها التي عليه ألا يعرفها مهما كان الثمن، لأنه لن يتركها وشأنها إن علم بحبها له.

- شقتي في الطابق العلوي.

- متى ستعود إلى بلادك؟

- في الأسبوع القادم. سأذهب أولاً إلى سيدني لبضعة أيام، على أن أسافر إلى شيكاغو في الأسبوع الذي يليه. كنت أريد الانتظار حتى تبرئي تماماً، لكن الوقت يداهمني لذا قررت أن أكلمك اليوم.

دخلا باباً يواجه المصعد فقال لها انريكو:

ـ لقد استأجرت الشقة من صديق لي. دعيني آخذ معطفك، فالتدفئة هنا جيدة.

انتزع عنها المعطف بحذر ثم وضعه فوق كرسي، وهو يقول باهتمام:

ـ اجلسي يا سندي تبدين مرهقة.

ـ أنا مرهقة... انريكو، لا تجعلني أواجه ما ستقول ثانية. أرجوك...

ـ تحتاجين إلى شراب ساخن.

ـ الوقت مبكر على تناول أي شيء.

اضطرت للجلوس بسبب ارتجاف أوصالها، تأملت الغرفة التي كان أثاثها غريب اللون، فهو أسود وأبيض وعلى الجدران لوحات حديثة. فقالت بخشونة:

ـ أنا لا استطيع العيش في مثل هذه الغرفة.

ـ إنه مثير للتوتر، أليس كذلك. اشربي هذا الفنجان من القهوة فهو ما قد تحتاجين إليه.

شرب انريكو فنجانه على دفعتين ثم وضعه على زاوية الطاولة، ليلتفت قائلاً ببرود:

ـ منذ يومين عادت ميراي إلى بوسطن وكنا قبل ذلك قد تحدثنا واتفقنا على أننا لم نخلق لبعضنا فألغينا فكرة الزواج لكن ميراي بدت سعيدة إن كان يهمك الأمر.

ـ لا فرق عندي. فالأمر لا يتعلق بميراي أبداً.

ـ أنت لا تحبين ذلك المراسل. إياك ادعاء العكس.

ـ ما كنت لأدّعي ذلك لأن لا شأن له بالأمر أيضاً.

ـ إذاً ما الأمر بحق الله؟

نظرت سندي إلى فنجانها الفارغ وهي تتمنى المزيد من الدفء ذلك أنها تحتاج للدفء لتحصل على الشجاعة الكافية... قالت:

ـ سأكره كل شيء... ألا ترى هذا؟ سأكون وكأنني دخيلة. سيرفضني اصدقاؤك ووالدتك وعندما تسافر حول العالم ماذا أفعل؟ ما نوع هذه الحياة؟ سأكون بائسة تعسة ولن يوافق أحد...

ـ ما شأن الناس بنا؟ هل أنت مجنونة؟ إني لا اصدق ما أسمعه منك.

ـ اوه لا تكن أحمق يا انريكو...

ـ أنا أحمق؟ وماذا تسمين نفسك.

ـ أنا منطقية.

ـ منطقية؟ هذا اسم جديد لسخافتك هذه التي تسمى عادة بلاهة.

احمر وجهها لسخريته اللاذعة.

ـ لا تدّع أن والدتك تحبني أو أنها لا تريدني أن أوّلي إلى الأبد من حياتك.

ـ لا يهمني ما تريده أمي إنما ما أريده أنا. لقد مضى العهد الذي فيه أطلب اذنها. أنا لا أسمح لها بانتقاء اصدقائي، كما لن أسمح لها بانتقاء زوجتي.

ـ أليست هي من اختارت ميراي؟

ـ كانت غلطة أدركتها بعد فترة وجيزة. لو كنت مكانك لما استخدمت هذا مثالا.

نظر إليها متحدياً... فأشاحت بوجهها عنه.

ـ انريكو... لن أقوى على العيش معك بالطريقة التي تعيش أنت.

ـ لكنك تدبرت أمرك مع ذلك الرجل الذي حاول قتلي، كما تدبرت أمرك مع روبن. الذي يخاف منك حتى الموت فهو يفضل مقاتلة أسد على المشاجرة معك. وأنا على يقين من أنك ستتأقلمين مع أي وضع قد

ترميه الحياة أمامك لأنك امرأة مميزة لم أر لك مثيلاً. فإن اعتقدتِ أنني سأسمح بأن ترميني خارج حياتك. فأنت لا تعرفينني جيداً بعد.

اقترب منها فارتجفت لما لامس جسده جسدها:

ـ لا تفعل هذا.

ـ أفعل ماذا؟

ولف كتفيها بذراعيه فقالت هامسة:

ـ هل نسيت كتفي المصابة.

ـ لا تقاوميني إذن.

وضعت يدها على صدره لتدفعه، لكنها كانت كمن يدفع جبلاً ذاك أنه قد دنا منها أكثر فأكثر حتى أفقدها صوابها، التفت ذراعها بضعف على رقبته، وذابت في عناق كانت تتوق إليه منذ زمن بعيد. وقال لها هامساً:

ـ هذا سيحل لنا كل المشاكل.

عندما علمت سندي أن شخصاً ما قد يقتله امتلأت ذعراً ويأساً وحزناً فركضت إليه تناديه باسمه في تلك اللحظات أدركت عمق حبها له أما الآن فلم تناده باسمه، بل عانقته، مغطية وجهها في صدره وكأنها ترغب في أن تموت عليه. ولم ترد أن يتوقف عن عناقها... لكن عليها أن تقول له وداعاً.

ابتعد عنها انريكو بلطف بعد قليل لينظر إلى وجهها الأحمر. فتحت عينيها مترددة لكنها لم تستطع منع نفسها عن مبادلته النظرات.

قال لها:

ـ أحبك.

ـ لا يمكنك...

ـ لكنني أحبك!... وأعتقد أنك تحبينني. فلماذا لا تعترفين؟

ـ لا استطيع أن أحبك.

حاولت الابتعاد فضمها إلى ذراعيه أكثر بينما يده الطليقة تمسح شعرها.

ـ هل أنت خائفة يا سندي؟

لم ترد لكن عينيها تكلمتا عنها، كما كانتا تفعلان دائماً قبل الآن حين تعجزُ الكلمات، فقال مبتسماً:

ـ لا أصدقك... أنت؟ خائفة؟ ممَّ تخافين بحق الله؟

فهمست وهي كارهة الاعتراف.

ـ أخاف أن اتألم... لن ينجح الأمر بيننا... فنحن لا نعرف بعضنا حقاً... ومن الجنون التحدث عن الحب، فماذا تعرف عني؟ بل ماذا أعرف أنا عنك؟... قد نتشاجر طوال حياتنا.

وضع اصبعه على فمها فتوقفت عن الكلام بعد أن أثارتها لمسته.

ـ سندي، هل تحبينني؟

تركزت عيناها على طرف فمه القاسي... وهي تتذكر ذاك الاحتراق الذي كان بينهما منذ اللحظة الأولى حيث شعرت بحاجة ماسة إلى أن يلمسها وإلى أن تصبحَ جزءاً منه وقد أرعبها ذلك طوال الوقت.

ـ هذا ليس عدلاً. (همست)

ـ أنت تحبينني... أليس كذلك؟ أنا أحبك وأنت تحبينني. فهل هناك أبسط من ذلك.

ـ أنت لا تفهمني.

ـ اشرحي لي الأمر إذاً. لماذا تجبنين أمام الحب. لا يضمن أي إنسان في هذا الوجود المستقبل يا سندي فقد أقتل غداً.

فشهقت ثم اصفر وجهها حتى أطراف شعرها. نظر إليها بحنان.

ـ وقد تقتلين أنت أيضاً يا حبي... ألا تظنين عندها أنني سأرغب في

الموت أيضاً؟ مهما كانت الصعوبات فسنواجهها معاً. إذ لا شيء سيكون أقوى من قدرتنا على مواجهته.

نظرت إليه سندي عاجزة متمزقة بين حبها له وخوفها من هذا الحب. لم تستطع إبعاد بصرها عن فمه في حينٍ انفرجت شفتاها وكأنهما بانتظاره.

قال لها بخشونة:

ـ أعطني سبباً واحداً يبرر عدم قدرتك على حبي. واحد فقط يا سندي على أن يكون سبباً وجيهاً.

كانت سندي بحاجة ماسة إلى ذاك العناق. فأغمضت عينيها، وتركت نفسها تذوب حتى قبل أن يتلامسا. ثم قالت هامسة:

ـ سأفكر بسبب غداً.

●●●

www.rewmancia.com مـرمـوريـا